صافيناز كاظم

الخديعة الناصرية

شهادة مواطنة مصرية
على سنوات عاشتها

دار الاعتصام

الخديعة
الناصرية

صافى ناز كاظم

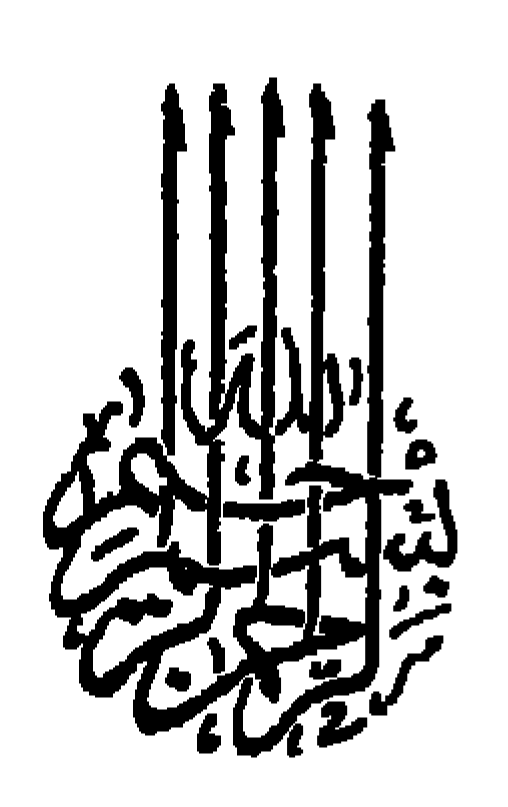


من أوراق شعب مصر السرية

شهادة مواطنة مصرية
على سنوات عاشتها

الطبعة الثانية
١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

دار الاعتصام



مقدمة

لا شك أن السنوات الست عشرة التى تولى جمال عبد الناصر فيها مسئولية الانفراد الكامل بحكم مصر — (منذ ١٩٥٤ — ١٩٧٠) — لا شك أنها سنوات ستظل تخضع لكثير من البحث والتأمل ، فى محاولات تحليل ايجابياتها وسلبياتها .. ومع هذا فان المواطن الذى عاش وعايش هذه الفترة تحت ظل حكم عبد الناصر ، وما زال يعايش حتى الآن الطقس السياسى الذى يخضع تيارات الساحة لأحكامه يستطيع أن يلقى الضوء — ولو من وجهة نظره — على ما دار ويدور فى وعلى الساحة المصرية .

* * *

عندما قامت حركة ١٩٥٢/٧/٢٣ لم تكن مصر ارضـــا نائمة أيقظتها هذه الحركة .. بل على النقيض : كانت مصر حبلى بالثـــورة وبالتمرد معـــا ، وكانت فى مرحلتها الأخيرة الناضجة المهيأة للوضـــع والميـــلاد للانطلاق الى فجر عصر جديد .. وعندما سبقت حركة الضباط ــ عام ١٩٥٢ ــ كل التكتلات الوطنية الأخرى الى التمرد ــ وليس الى الثورة ــ على الأوضاع الفاسدة ، وعلى الوضعية السياسية ، التى انتهت شرعيتها فى أذهان الجماهير حتى قبل سقوطها ، التف حولها الشعب مسقطا عليها كل أحلامه الثورية التى تشوق اليهـــا طويلا ، خاصة بعد مرارة الهزيمة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . وفى غمرة الحماس الشعبى الذى تبنى حركة الضباط ولقبها بالثورة ــ لأنه كان يريدها كذلك ــ لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة موقف هذه الحركة الجديدة .. بل على العكس وافق المجلس الشعبى على أن يقوم بوعى منه أو بلا وعى ــ بدور « المبرر » لكل الأخطـــاء التى ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لتوليها الزمام فى مصر .. هـــذه الأخطاء التى وصلت فى حالات الى درجة الخطأ الفـــادح ،

وفى حالات اخرى الى درجة الجريمة النكراء ، ثم بلغــت فى نهاية جولتها درجة خيانة الشعب وخيانة مبــادئه وأهدافه وقضاياه : (الاســلام ، تحرير المواطن من الجهل والفقر والمرض ، تحرير فلسطين باعادتها أرضــا ودولة عربيــة اسلامية بالقضاء التام على الكيان الصهيونى) .

لم يقف الشعب ليناقش مفاهيم ومدلولات شعار « الثورة البيضاء » ـــ الذى أطلقه الضــباط على حركتهم ـــ ليتساءل ويقــارن « بيضــاء » على من ؟ و « حمــراء » على من ؟ و « سوداء » على من ؟ فقد خلع الملك وتم الابقاء على ولى عهده الأمير أحمد فؤاد ، وأعطى الملك حق « الموافقة » على الثورة بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنــازل عن العرش وترك البلاد . وجاء بيان الاذاعة يقول : « ... وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين » ! .

وتم رحيل الملك فى ٥٢/٧/٢٦ عن مصر فى يخته المحروسة مودعا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له ، ولم يمس كادر ملكى من أتباعه بشعرة أذى واحدة .. وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمى لهذه الحركة .. لأنه وبعد أسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب « الحضارى ! » مع ملك

مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه، توافق أن قامت فى مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج ـ (يوم ١٠/٨/١٩٥٢ أو١٢/٨/١٩٥٢ اذا لم تخنى الذاكرة) ـ مظاهرة تمرد ضد الادارة الرجعية التى لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش .. وكانت هذه المظاهرة التى قام بها عمال المصنع قد رفعت شعارات الحركة الجديدة التى جاءت ـ كما قيل فى الاذاعة ـ ضد الفساد والاستغلال ، وهتف العمال بحياة القائد العام وفتيته الثوار ، وكانوا قد تصوروا أن هذه الحركة لا بد متبنية لمطالبهم مساندة لموقفهم ضد الادارة الرجعية ـ ولكن العجيب حدث : اذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار « الثورة البيضاء » عن أنيابها وتحالفت مع الادارة الرجعية وتم قمع مظاهرة العمال دون أية محاولة لتفهمها ، ودراسة بواعثها . وأقيمت فورا المحكمة العسكرية لمحاكمة (العصاة) : وتم تقديم ما يربو عن ٦٠ متهما وتم تحديد زعمائهم باتهام العامل «خميس» (١٨ سنة) والخفير « البقرى » (١٩٫٥ سنة) ـ وهو أب يعول خمسة اطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب القليل فى اليوم ! ـ وكان من بين المقدمين للمحاكمة : أطفال فى سن العاشرة والحادية عشرة « شاءت انسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم » .. كما

جاء فى تقرير أحكام قضية عمال كفر الدوار الذى صدر عن ادارة القوات المسلحة ١٩٥٢/٨ برجاء الرجوع اليه لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا فى فهم الطبيعة الفاشستية لهؤلاء الضباط التى عبرت عن نواياها منذ الشهر الأول لقيام هذه الحركة .

* * *

وفى أقل من اربعة أيام ، تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين . وصدرت الأحكام باعدام خميس والبقرى والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى لبقية المتهمين . وتم تجميع عمال المصنع كلهم فى النادى الرياضى وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهم الأحكام المرعبة خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل .

ويقول شهود الواقعة من الصحفيين الذين أثبتوا شهادتهم فى تحقيقات صحفية نشرت بالمصور وآخر ساعة وغيرها من الصحف فى شهر أغسطس ١٩٥٢ أن المتهم « البقرى » وزميله « خُميس » استمرا يصرخان فى المحكمة : « يا عالم ... يا هوه مش معقول كده ... هاتوا لنا محامى على حسابنا حتى ... ده احنا هتفنا بحياة القائد العام ... ده احنا فرحنا بالثورة المباركة ... مش معقول كده ... »

وبناء على هذه الصرخات سألت المحكمة الجلوس :

ـــ حد فيكم محامى يقبل الدفاع عنهم ؟

فتقدم موسى صبرى المحامى (الصحفى الآن) وقال : أنا محامى . وسمح له بالجلوس مع المتهمين دقائق . وبعدها قدم مرافعة شكلية قصيرة ثبتت التهمة على الشهيدين .

وتم تنفيذ الاعدام فى البقرى وخميس يوم ١٩٥٢/٨/١٧ وسجلت الصحافة وقتها اللحظات الأخيرة فى حيـــاة خميس والبقرى ـــ (انظر مجلتى المصور وآخر ساعة أعداد شهر ١٩٥٢/٨) وقد وصفهما محرر آخر ساعة صلاح هلال بأنهما شيوعيـــان !! والثابت أنهما لم يكونا منتميين الى أى فـــكر سياسى ، ولم تكن المظاهرة سوى تعبير وطنى عام عن الفرح بقـــدوم عهد جديد ، وفرصــــة للتنفيس عن بغضهم للادارة الرجعيـــة الظالمة .. والطريف أن الحزب الشيوعى المصرى تنصل وقتها من انتمائهما وأنكره ، أما الآن ـــ وبعد أن أعيدت ذكرى الظـــلم الذى وقع على خميس وبقـــرى ـــ فيطيب للماركسيين المصريين أن ينوهوا ويفتخروا ويؤكدوا أن خميس وبقرى كانا بالفعل من الشيوعيين . وهذا غير صحيح ولم يكن أبدا) .

فى نفس الفترة حدث تمرد حقيقى بالصعيد ضد مصالح الشعب وضد حركة ١٩٥٢ بصفتها حركة لصالح الشعب . قام بهذا التمرد المسلح اقطاعى اسمه عدلى لملوم ، لم يكف هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ، ضد الثورة وضد الفلاحين . وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد * حتى تفسح له مكانا من رحمة شعارها « الثورة البيضاء » هذا الشعار الذى شملت به الملك من قبل ، واتسع ليضم كل الفاسدين المفسدين من سفاحى الشعب المصرى حقا : من وزراء ورجالات واقطاعى « العهد البائد » والذى ضاق وعجز تماما عن استيعاب ورحمة ابنين معدمين مخلصين من أبناء الشعب المستضعف ، الذى تدين حركة الضباط — أول ما تدين — لتضحياتهم فى سبيل نجاحها واستمرارها .

هذه البداية لحركة ١٩٥٢/٧/٢٣ ننظر لها الآن ونستطيع أن نستشف فورا : خلوها الكامل من فكر ووعى يعطى لها منطلقا مبدئيا يحدد لخطواتها الطريق الذى تصعده متدرجة نحو غاية محددة ، أو رؤية حضارية أو فلسفية

---

* تجدر الاشارة هنا الى الافراج الصحى الذى حصل عليه عدلى لملوم بعد ذلك كما تجدر الاشارة الى أن محاكمته كانت حافلة بأقطاب المحامين .

انسانية تحسم لها المواقف وتحل لها الظواهر ، بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين : تمرد للعمال ايجابى ، كمثل الذى شارك فيه الشهيدان « خميس » و « بقرى » وبين تمرد سلبى لاقطاعى مثل عدلى للوم .. بحيث لا تصل الى قرار بأن تقتل أبناء الشعب وتحافظ على حيـــاة أعدائه وتستمر فى ذلك حتى الآن .

منذ هذا الخلط الواضح فى مبدئية حركة الضباط هذه ــ استمرت هذه الحركة فى اتخاذ سياسة : ذبح كل الاحتمالات الواعدة ، التى يمكن أن تشرئب من بين صـــفوف الشعب المصرى ، لتحاسبها أو تناقشها أو تفضحها وتقـــول لها : مكانك ! لقد خدعنا فيك ، ولست أنت امل مصر ، ولا صيغة خلاصـــها ، غير مفرقة فى هـــذه السياسة بين الحـــركة الاسلامية ، وعلى رأسها « الاخوان المسلمون » ، أو الحركة العلمانية اللا اســـلامية بتياراتها المختلفة من شـــيوعيين أو يســـاريين أو اشتراكيين أو حتى بين صـــفوف الاتحاد الاشتراكى فيما بعـــد ؛ هذه السياسة التى افقدتنا ــ بين الكثير الذى فقدناه ــ مفكرين عبقريين من أعظم ما أخرجته التربة المصرية لمصر وللوطن الاسلامى وللعالم اجمع ، هما الشهيد عبد القـــادر عودة (١٩٥٥) والشهيد ســـيد قطب

(١٩٦٦) حين نفذت فيهما « الثورة البيضاء » حكم الاعدام ظلما وجورا واعتسافا . ولقد مارس عبد النـاصر هذا النهج ، وبلوره وأجاده منذ أن انفرد بالسلطة عام ١٩٥٤ معتمدا معه سياسة سرابية : تغذى الأحلام ، دون أن يجد اى حلم شعبى سبيله على أرض الواقع ، وتصنع منه رمز الفارس الآسر القوى أو « الجدع » مستقطبة أحلام الشعب العربى فى مصر وخارجها ، للتمركز فى شخصه ، مكررة على مسامعه السؤال الشرير : « من البديل ؟ » والبدائل العظيمة تسحق دوريا بالمشانق والتعذيب والاعتقالات التى لا تنتهى . ولقد بلغ اتجاه التمركز فى شخص عبد النـاصر أوجه عام ١٩٥٦ ، عند اصداره قراره تأميم قناة السويس ، الذى صاغه بحيث يبـدو هو من ورائه « الشجيع » الذى يصفع أمريكا فى مقابل صفعة من أمريكا ، حين رفض البنك الدولى تمويل مشروع السد العالى : فظهر قرار التأميم أمام الشعب العربى الفرحان : كضربة شجاعة تثأر لرفض تمويل السد العالى : ضربة شجاعة لا يقدر عليها الا « الجدع » عبد النـاصر . وتاهت فى الصخب حقيقة أن تأميم قناة السويس : حق من حقوق الشعب المصرى * كان يجب أن يتم سواء قبل البنك

---

* تجدر الاشارة هنا الى أن « تأميم قناة السويس » تضمنه البرنامج السياسى لبعض الهيئات الشعبية مثل الاخوان المسلمين والحزب الاشتراكى (:احمد حسين) .

الدولى أم رفض تمويل السد العالى أو غيره ، وأن هذا الحق يجب أن يصدر بقرار ، هو جزء من خطة منهجية ، فى برنامج الثورة ويصدر باسم مصر واسم ثورتها وليس باسم شخص محدد يملى ارادته على مصر ، بدلا من أن تملى مصر عليه ارادتها .

ومع ذلك فسوف نتقبل هذا القرار — أيا كان الأسلوب الذى صدر به — كان مكسبا للجماهير العربية وكانت ادانة الأمم المتحدة للعدوان الثلاثى ، الذى حدث أثره ، كانت هذه الادانة من النتائج الايجابية ، التى كسبتها مصر ومعنويات الشعب العربى .. لكن هذه المكاسب ان كانت قد غفرت لعبد الناصر أسلوب اعلان قرار التأميم ، فانها لا تغفر له اخفاء حقيقة الوضع العسكرى الذى نشأ فى المنطقة اثر العدوان عن الجماهير العربية وعن الشعب المصرى — دافع الثمن دائما — فقد تصورت الجماهير أنها انتصرت مائة فى المائة ، وان الاحتلال الأجنبى قد رحل تماما ولم تعلم أى شىء عن وضع مضايق تيران ، أو شرم الشيخ ، أو الموافقة السرية من عبد الناصر للسماح للسفن الاسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية .

واستمر الصعود المتنامى لشخص عبد الناصر كزعيم

عربى ، رأت فيـــه الجماهير العربيـــة ــ (التى تجهل معظم الحقائق وتعيش بالحلم والدفع الاعلامى) ــ أملها المنشود ، خاصة بقرار الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ .. هذا القرار الذى تم كذلك بقرار فردى مباغت ومفـــاجىء .. ومع ذلك ســـاندته كل القوى الحركية العربية . وتسجل ســـنوات ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ (تأميم الصحف فى مصر) حتى ١٩٦١ أوج الصعود لشخص عبد الناصر مجسدا ــ بشعاراته ــ امانى وأحلام الأمة ، خاصـــة بعد أن أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه : الاشتراكية العربية .. مع هذا الصعود لشخص عبد الناصر كان هناك دائما الهبوط لسعر الشعب المصرى وقيمة الفرد فيه ، حيث كانت هذه السنوات نفسها سنوات بزوغ المنهج الاجرامى وتألقه لالغاء شخصية الانسان المصرى ومحوه ، الذى ابتدعه عبد الناصر وسلطه هو وقنواته ليحول الشعب المصرى المتكلم الساخر الفصيح الى بجع مسحور ، مسلوب الارادة ، لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة ، وسوى اخفاء الكلام كالسمك فى كيس منقـــاره : ســـنوات تأسيس منهج اشـــاعة الذل والقمع ، والارغام والاقتـــلاع من الجـــذور وجدع الأنوف وقطع الالســـنة ــ (حتى ولو بقول النكتة التى لا يحيا بدونها المصرى) .ــ وقصم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط . سنوات تقنين المنهج

البـدائى الهمجى ، الذى عير به المغول والتتار : منهج : احراق مكتبات بكاملها ، بعـد شنق مؤلفيها الأفذاذ ، حتى لا يقرأ الشعب المصرى ، ومن ورائه الشعب العربى ، الكتب التى تمد اليه طوق نجاته ــ (الاسلام) ــ ويغرق بدلا منها حتى أذنيه فى مؤلفات الركاكة ، والسماجة ، والأكاديميـة المزيفـة ، والشقشقات والطقطقات التى ترضى الزعيم ، وتخلص دائما الى النتيجة بأنه : « ليس فى الامكان أبـدع مما كان » وأن الفزع الوحيـد ــ الذى يجب أن يواجهـه الشعب المصرى ــ هو فزع احتمال غياب عبد الناصر فمن يكون البديل لهذا الفلتة المفلوتة من دورة الزمان !

وبما أن لكل عمـلة وجهـين ، ولكل شىء ما يريح وما لا يريح ، فان خمر السلطة وكرباج القمع تمكنا من عزل عبد الناصر تماما حتى عن موقع قدميه ، حيث أصبح لا يرى ابعد من أنفـه . وتحت وطأة منهجه الاجرامى ، فى تعبيد شعب مصر ، الذى حاول ممثـلوه أن يقـرروه على شعب سوريا : الاقليم الشمالى لجمهـورية عبد الناصر العربيـة المتحدة ، كسرت الوحدة بين سوريا ومصر فى ١٩٦١ وكانت الهزيمة الأولى الواضحة لعبد النـاصر . ومع ذلك لم يفق عبد الناصر اثر هذه الرجة العنيفة لحكمه .. بل على العكس

استمر أعمى فى أسلوبه الخطر الذى كبده ــ شخصيا ــ فى النهاية هزائم أقسى وأمر .. فبدلا من أن يراجع سياساته ، حتى يقف على طبيعة الأسباب التى تكالبت على الوحدة ، وكبدت الجماهير العربية خيبة أمل محزنة ومرة ، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية ، متعاميا تماما عن أسباب مسئوليته فيها مباشرة ، معتمـــدا على مـــكانة الحب الهائلة ومستغلا لها ــ تلك المكانة ــ التى كانت تضعه فى قلوب الجماهير العربية التى لا تريد أن تتبدد أحلامها .

واحتمى عبد الناصر من هزيمته هذه ــ فى انفصـــال سوريا عنه ــ خلف قوانين ١٩٦١ الاشتراكية ، التى ألهت طبولها ومزاميرها وأفراحها ، الناس عن رؤية الأخطاء التى تكمن فى سياسة عبد النـــاصر الفردية السرابية ، ومنهجه القمعى ، والذى أدى مجملها فيما بعـــد الى تعطيل كل هذه القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة .

* * *

محاربة عبد الناصر بعبد الناصر :

كانت أعوام الستينات حتى ٥ يونيو ١٩٦٧ هى الأعوام التى بدأ الشعب المصرى يتهامس فيما بينه عن مرض مصاب به عبد الناصر يسبب الجنون .. وبالذات : جنون العظمة . وتزايد الهمس عندما توفى الدكتور أنور المفتى فجأة وكان هو الطبيب الخاص لعبد الناصر الذى قيل انه مكتشف هذا المرض عند عبد الناصر مما دفع عند الناصر الى قتله بالسم .

ولكن المراقب لم يكن يحتاج الى تقرير من طبيب فلقــد أعلن عبد الناصر عن جنونه بنفسه عندما أصدر عام ١٩٦٥ قراراً باعتقال ١٨ ألف مواطن في يوم واحد .. وفى ساعةواحدة .. هى ساعة السحر .. ارهابا للشعب .

وكانت أعتقالات ١٩٦٥ قد شملت كل تيارات الحركة الاسلامية ، وعلى راسها « الاخوان المسلمون » . وشملت معهم كل من تاخم ولامس أو جاء ذكره مصادقا لأى فرد من الحركة الاسلامية ولو كان نصرانيا ! كانت الحملة قاســـية

ولا انسانية ، غاشمة وباغية ، واصيبت مصر بالذعر ، حتى ان البعض اوشك على حرق سجادة صلاته واخفاء مصحفه حتى لا يتهم ويزج به معتقلا مع الاخوان المسلمين .

وكانت هذه الفترة — كذلك فترة استماتة الجماهير فى مصر ، من أجل التمسك بالمكاسب الاشتراكية ، التى أتت بها قوانين ١٩٦١ .. كان الجهد الشعبى يرمى الى تحويل هذه القوانين من مجرد شعارات « مزوقة » وتجـارة سياسية ، تمـلأ قنوات الاذاعة والتليفزيون بالمن على الشعب بمـا جلبته له السلطة السياسية : كان الجهد أن تتحول هـذه القوانين الى واقع ثورى حقيقى .. فقد أدرك قطاع الطليعة المثقفة الثورية الزيف الذى يغلف كل الشعارات الثورية التى يطرحها عبد الناصر فى خطبة وتبثها أجهزة اعلامه . لـكن الطليعة الثورية كانت — بالرغم من ادراكها هـذا الفارق الضخم بين المعلن والواقع — تدرك كذلك أنها مرغمة على أن تحارب عبد الناصر بعبد الناصر .

فلقد أدرك الكثيرون بأن هناك رمزين من عبد الناصر :

١ — عبـد الناصر : المواثيق والقـوانين الثورية الاشتراكية ، والتى هى حبر على ورق .

٢ ــ عبد الناصر : جهاز الحكم والتنفيذ الذى يقمع كل سلوك ومبادرة ثورية ، ويتصيد الثوريين حتى من بين صفوفه ، الذين يريدون تنفيذ القوانين الاشتراكية . بينما يحمى ويدعم كل المخالفين والمتهربين من القوانين الاشتراكية .

وهكذا عرفت سنوات الستينات خاصة ما بعد ١٩٦١ الهوة الفاضحة بين القول والفعل . وصار هذا موضوع التعبير الفنى عند كثير من الشعراء والكتاب ومؤلفى المسرح الذين ظهروا ولمعوا فى تلك السنوات الفوارة بغليان النقد ، واشارات التنبيه . لكن هذا الغليان من النقد لم يكن ليحظى من عبد الناصر « الحكم » الا بالابتسام أحيانا وبالجهامة فى أغلب الأحيان : وكانت أحوال الابتسامة مبعثها أن «محمد حسنين هيكل» قد أفهمه أن طقس النقد الى درجة معينة لا ضير منه بل على العكس ، فهو يعطى الساحة الفنية والسياسية جاذبية ثورية ، ومسحة نضالية محببة ، مما يساعد على تنشيط « السياحة السياسية » ، وزيادة الترويج العربى والمحلى لشخص عبد الناصر .

ومن هذا الاطار كون هيكل ــ بتدعيم كامل من عبد الناصر

ـــ فى مؤسسة الاهرام ما اسماه الصـــحفيون فى ذلك الوقت: « طبقة المخصوص » من الكتاب والصحفيين ، وكان أبرزهم: توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، ويوسف أدريس ، و د . حسين فوزى ، ولطفي الخولى .. الخ .. ليقودوا خط النقد « اللانقد » ويحموا تحت أجنحتهم بعض التيارات النقـــدية الأكثر حدة منهم . ولكنها مع ذلك لا تمس اى عصب موجع.. خارج هذا «المخصوص» .. برزت أصـــوات نقدية معارضة غير ملجومة بقيد من خوف أو تحفظ ، فنشـــــأ جيـــل كامل طليعى كتب الشعر والقصة والرواية والمسرحية واشكال المقال السياسى المختلف : ولم يسمح لهذا الجيل بالظهور أبدا من خلال قنوات الدولة الشرعية ، فاضطر هؤلاء الكتاب أن يستنسخوا نتاجهم ليقرأ ويسمع فى دائرة محدودة تعبر عن شعب مصر وآلامة .. لكنها لا تصل الى الشعب أبدا حيث وقفت المؤسسات الفنية الضخمة حائلا بين الشعب وصوته.

هذا النقيض فى عالم الثقافة والاعـــــلام ـــ كان من اليسير على عبد الناصر « الحكم » أن يسيطر عليه أو يحتويه أو يسحقه ، دون أن تسيل نقطة دم جسدية واحدة ـــ (رغم ان بحارا من الدماء والقتل المعنوى كان واقعا ومستمرا) ـــ

المشكلة بدأت عندما أخذت العناصر الثورية ـــ بين

العمال والفلاحين ـ تمارس دورها فى حماية ما أسموه « ظهر الثورة » وحراســـة « مكاسب الشعب الاشتراكية » فقــد لاحظت هذه العناصر الثورية ـ والتى هى ١٠٠ ٪ «يوايوية» أى تكونت من الأحلام والطموحات التى تفجرت مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ ان السيطرة ـ فى كل قطاع عام أو مصنع أو جمعية تعاونية ـ كانت للمخالفين واللصوص والمرتشين وأهــل الفساد كافه .. كانت السيطرة للأعداء الحقيقيين للاشتراكية المزعومة مما أدى الى واقع مشلول الفاعلية للقطاع العام والمصانع والجمعيات التعاونية : ما بين مصنع منهوب وجمعية مسروقة ومستغلة وقوانين يتم التحايل لابطالهـــا . وبرز من بين هذه الطليعة الثورية صلاح حسين وزوجته شاهندة مقلد فى قريتهما كمشيش .. كان «صلاح حسين» كادرا ثوريا نقيا تربى فى مدرسة الاخوان المسلمين ، التى تعهدت حماسه وجيشان غضبه للحق فى سبيل الله ، وكان قد سافر وهو فى العشرين ضمن كتائب الاخوان المسلمين ، للدفاع عن أرض فلسطين عام ١٩٤٨ ، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اعتبر نفسه ضمن جنودها للتغيير والتصدى للاقطاع والفساد فى قريته كمشيش . وكان دوره هو تشجيع الفلاحين على رفع رءوســـهم عالية ، مستندين الى ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مواجهة طغيان وسطوة عائلة الفقى الاقطاعية ، التى مدت

سيطرتها من خلال عملاء لها الى الجمعية التعاونية للفلاحين، والى جهاز الأمن بالمنطقة . وشهدت كمشيش عمليات الاعتقال والتربص بالفلاحين ، وضربهم ، وتعذيبهم لصالح عائلة الفقى، التى لم تتوقف عن الوشاية بصلاح حسين وزمـــــلائه لدى اصدقائها فى اجهزة الأمن ، وبعض المسئولين فى مجلس قيادة الثورة ! وكان أن تم اعتقال صلاح حسين العديد من المرات بتهم مختلفة تتناقض مع بعضها البعض . فمن اتهام بالانتماء الى جماعة الاخوان المسلمين ، الى الاتهـــــام بتكوين خلية شيوعية فى كمشيش ! وكان صلاح حسين يحلل أسباب العسف الواقع عليه وعلى الفلاحين من سلطات الأمن ، بأن هناك بعض عناصر فاسدة فى هذا الجهاز الموروث عن العهد البائد قبل الثورة . وأن القيادة الثورية فى الحكم وعلى رأســـــها عبد الناصر ، لا يعرفون أمر هذا الفساد وهذا الظلم الواقع على أبناء الثورة المخلصين . وبايمان مطلق بهـــذه القيـــادة وبراءة نقية أخذ صلاح حسين على عاتقه ان ينبه القيـــادة الثورية الحاكمة بهذه المخالفات لمبادىء الثورة ، والتى من شأنها أن توقع بين الحاكم المخلص والمحكوم المخلص كذلك . بهذا التصور البرىء استمرت محاولات صلاح حسين وزوجته شاهندة وزملائهم لتنوير القيادة السياسية بما يحدث ضـــد الثورة فى الخفاء . وكان اكتشافهم لعمليات مريبة تقوم بهـــا

الأسرة الاقطاعية « لتهريب الأرض » بالتحايل على حد الملكية الذي قرره القانون ، وضم مساحات من الأرض — لا يسمح بها القانون — لملكياتهم الخاصة . وكان لابد أن يستميت صلاح حسين وشاهندة لكي يستطيعا أن ينبها السلطة الغافلة — (أو التي تدعي الغفلة) — الى هذه المخالفات الخطيرة . التي تقوم بها عائلة الفقي بجسارة وارهاب ، وفي قمة هذه الاستماتة الثورية للحفاظ على قوانين السلطة الناصرية باعتبارها حق الفلاحين ، سقط صلاح حسين فجأة برصاصات غادرة ، شهيداً على أرض قرية كمشيش في ١٩٦٦/٤/٣٠ — أربعة شهور قبل تنفيذ حكم الاعدام في عدد من قيادات الاخوان المسلمين من بينهم الشهيد سيد قطب في ١٩٦٦/٨/٢٠) .

وهاج الفلاحون ، وقامت شاهندة — بعد ٤٠ يوما من وضعها لطفلتها بسمة — لتقود المظاهرات في كمشيش ضد الاقطاع ، ممثلا في عائلة الفقي وضد عملاء الاقطاع : مدركة هي والفلاحين أن القاتل لابد وأن يكون من عائلة الفقي . صاحبة المصلحة المعادية لصالح الفلاحين . ورفع الفلاحون هتافا يتساءل : «قلبوها حمرا يا جمال ولإمتى بيضا يا جمال !» ونزلت عناصر سلطة عبد الناصر « لحكم » القرية ، مرتجفة من هياج الفلاحين الذين أقسموا على تمزيق عـــائلة الفقي

وعملائها . كانت السلطة خائفة من هياج « الفـــلاحين » المتجمع كما خافت من قبل فى بدايات أيامها من هياج «العمال» المتجمع . ورغم ان هياج الفلاحين كان مستندا الى دعمـه للثورة والسلطة الحاكمة ، كما كان هياج عمال كفر الدوار من قبل فى ١٩٥٢/٨ ، الا أن السلطة كانت تعرف نفسـها وحقيقتها أكثر من معرفة الفلاحين والعمال بها . كانت تعرف أنها سلطة فوقية لا يمكن أن تسمح ـ بالذات ـ للفلاحين والعمال بمبادرات يمكنهم من خلالها المشاركة فى تسيير البلاد، وفرض الحلول لمصالحهم . كانت تعرف أنها سلطة فوقية ؛ ارتدت الثورة رداء مستعارا ، ويمسك بتلابيبها فرد واحـد لا يسمح لرأس مستقل ، وحر وعزيز ، أن يرتفع أمامه حتى ولو كان مخلصا محبا له ، مرافعا عن سلطته ، ممثلا لشعاراته كما كان صلاح حسين . ولقد طار من قبل رأس الشهيد العلامة عبد القادر عودة عام ١٩٥٥ ، لأنه اســتطاع أن يسكت الجماهير المتجمعة فى عابدين مارس ١٩٥٤ باشارة من يده ؛ بعد أن عجز عن ذلك الواقف الى جواره * : فلقد عزم

* روايات عديدة أوردت جريمة قتل الشهيد عبد القادر عودة ظلما ـ فوق ظلم ـ بقرار من عبد الناصر شخصيا منها واحدة سمعتها شخصيا من الاستاذ محمد عودة الكاتب السياسى الناصرى واخرى من الاســتاذ فتحى رضوان ـ اطال الله عمره ومكنه من تسجيل شهادته بنفسه فى هذه =

عبد الناصر منذ بداية انفراده بالحكم على الا يسمح لكائن من كان أن يرتفع فى مصر على أيدى الجماهير أو أن تفرز الجماهير من ذاتها باختيارها من تراه ممثلا لها : وهذا الذى يدفعنى الى القول بأن اغتيال صلاح حسين لم يكن فى واقعه الا تنفيذا لحكم بالاعدام، صدر عليه من قبل السلطة التى أزعجهانشاطه

= الواقعة للتاريخ — ثم أخيرا شهادة الاستاذ احمد حسين رحمه الله فى مقاله الاخير قبل وفاته بأيام فى جريدة الشعب ١٩٨٢/٩/٧ ص ٦ ، والتى — لاهمية دلالتها فى اطار هذا التحليل — انقل عنها هذه السطور :

« نحن الآن فى عام ١٩٠٠ . أفرج عنى وتنازلت عن القضية ؛ ولكننى ظللت مجروحا فلم يحدث فى كل تاريخى النضالى أن أهنت كما اهنت واعتدى على كما اعتدى على فى ظل الثورة ...

اطلق الرصاص فى ميدان المنشية على جمال عبد الناصر وكان الضارب شخصا يدعى عبد اللطيف من الاخوان المسلمين : وعلى الرغم من ان عبد الناصر قد نجا فقد ظن انه اصيب فى مقتل وراح يثرثر بكلام فارغ يكشف عما فى عقله الباطن : وأخذ يخاطب الشعب بقوله : (غرست فيكم العزة والكرامة !) .

واستغل هذا الحادث للبطش بالاخوان المسلمين وتالفت محكمة خاصة لمحاكمتهم وقضت على زعمائهم بعقوبات قاسية وعلى الرغم من ان واحدا منهم وهو عبد القادر عودة كان مسجونا قبل وقوع الحادث فلم ينج من عقوبة الاعدام . وفزعت من هول المحاكمة .. ومن فظاعة احكامها وأدركت اننا اصبحنا نعيش فى ظل عهد جديد : حيث لا قانون ولا حدود وانما ارادة الحاكم ومطلق مشيئته فقررت أن اهاجر من مصر ، واذا كان الوقت =

= هو موسم العمرة فقد قررت أن اســافر السعودية طلبا للعمرة ومن السعودية أختار البلد الذى أتوجه اليه . وامعانا فى التمويه والتعمية طلبت مقابلة عبد النــاصر لاستئذانه فى السفر وبالرغم من اننى كنت مقررا ان لا اتحدث فى غير التحيات والسلامات والمجاملات العادية ، فقد كان هو الذى دفعنى للكلام ، حيث لم اتمالك نفسى عن نقده . سألنى ما رأيك فى الاخوان المسلمين قلت : أنك تعرف رايى — اقصد الموقف الاخير — ووجدتنى أندفع بلا وعى أندد باعدام عبد القادر عودة — قلت لقد كان باستطاعتك أن توفر ٥٠ ٪ من النقد الذى وجه اليك لو وفرت حياة انسان واحد . وأسرع يقول : تقصد عبد القادر عودة ؟ قلت : نعم ، فان عبد القــادر عودة برىء من الحادث الذى وقع ، كما أنه برىء من أعمال العنف . ومضيت أترافع فى حماسة : وهناك ثلاثة أدلة يكفى كل واحد منها لتبرئة عبد القادر عودة ؛ وقد ثبتت كلها أمام المحكمة :

الاول : انه كان سجينا قبل وقوع الحادث بعدة أسابيع .

الثانى : انه اقترح من بعض الاعضاء القيام بمظاهرة مسلحة فانكر عبد القادر عودة هذا الاقتراح بشدة ة

والثالث : ان البعض اقترح القيام بمظاهرة سلمية فرفض عبد القادر عودة القيام بأية مظاهرات .

واصغى عبد الناصر لمرافعتى ثم قال :

— والله يا احمد نحن لم ننظر للامر من الناحية القانونية ، بل نظرنا اليه من الناحية السياسية .

غادرت مصر الى السعودية ، وانا لا أكاد أصــدق أننى هربت من الجحيم الذى أصبح فيه الابرياء يعدمون لاســباب سياسية ... » انتهى المقتطف .

وصـــدقه وجماهيريته الراسخة بين أبناء قريته ، ومما يؤكد هذا القول ما ذكره أنور السادات كثيرا فى خطبه ثم فى كتابه « البحث عن الذات » من أن عبد الناصر امتعض حين مر على كمشيش أثناء زيارة وقرأ لافتة تقول : « ثورة كمشيش تحيى الثورة الأم ثورة ٢٣ يوليو ! » وقال عبد الناصر : « الله .. هو فيـــه ثورة تانية فى مصر واحنـــا مش عارفين والا ايه » ! ؟

ازاء هياج الفلاحين فى كمشيش ــ لمقتل زعيمهم صلاح حسين ــ تحركت خطة عبد الناصر المعتادة فى تمييع المواقف الساخنة .. فلم يكن بوســـع السلطة أن تفعل بالفـــلاحين عام ١٩٦٦ ما فعلته بعمال كفر الدوار ١٩٥٢/٨ ولذلك كان عليها أن تستبدل الوجه الجهم فى مواجهة العمال ، بالابتسامة الصفراء فى مواجهه الفلاحين : وبدات الخطة باحتضان قضية مقتل الشــهيد صـــلاح حسين ، على اساس انها قضـــية تستوجب تحقيقا تتبناه الدولة ، لمعاقبة الاقطـــاع الذى بدأ يتحرك ــ (هكذا ! ولم يجد أحد الفرصـــة ليتساءل وكيف تركتم اقطاعا به قوة للتحرك ولقتل العناصر الثورية بعـــد اربعة عشر عاما من حكم تسمونه « ثورة ! ») ــ واستفادة من منطق : " اقتل القتيل وامش فى جنازته » ومبدأ « اقتل الجميع بحجر واحد » واحتياجا لـ « زار » صاخب تتوه فيـــه جرائم القتل ــ الممهد لها والتالية ــ التى تقرر تنفيذها فى زعماء المقاومة الاسلامية وعلى رأسهم الشهيد سيد قطب فى

١٩٦٦/٨/٢٠ : وجدت السلطة ضالتها فى قضية كمشيش التى تفجرت مع عيد العمال ١٩٦٦/٥/١ .

صرخ الفلاحون : « الاقطاع هو القاتل : الويل له » : فالتقطت السلطة هذه الفرصة الذهبية لاخفاء جريمتها ومسئوليتها عن قتل الشهيد صلاح حسين : الجريمة التى نفذتها وحدها — ربما — أو نفذتها بالاتفاق مع عائلة الفقى — ربما كذلك — حيث التقت مصالح السلطة ومصالح الاقطاع ، فى الخلاص من الشاب الشريف ، المتألق بحب وثقة الفلاحين ، الشهيد صلاح حسين* .

وهكذا ، ومع الاقرار بجرائم عائلة الفقى وتاريخها الطويل الأسود فى العمالة للمستعمرين الانجليز ، وقتلهم واذلالهم للفلاحين المعدمين ، الا أن عائلة الفقى ما كان يمكنها أن تنقض على أحد الا بايعاز وتواطؤ مع سلطة عبد الناصر ، ولرؤية ضوء الموافقة الأخضر ، يحمله اليها صديقها الحميم ومندوب عبد الناصر لديها : « محمد أنور السادات » .

---

* تجدر الاشارة هنا الى أن صلاح حسين ظل محدد الاقامة طوال سنوات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ بسبب معاركه ضد الاسرة الاقطاعية ثم اعتقل عام ١٩٥٤ ضمن اعتقالات الاخوان المسلمين ولم يفرج عنه الا عام ١٩٥٦ ، ثم اعتقل مع الاخوان مرة أخرى ضمن هجمة ١٩٦٥ الشهيرة .. ولقد ظل صلاح حسين معزولا سياسيا حتى لحظة اغتياله مما يوثق أستنتاجاتى بتواطؤ السلطة الناصرية مع الاسرة الاقطاعية فى جريمة قتله .

وقررت سلطة عبد الناصر أن تصرخ ــ لبعض الوقت ــ مع الفلاحين : « الاقطاعى هو القاتل : الويل لعائلة الفقى » : فهى على كل حال لن تخسر شيئا .. بل هى الكاسبة فى كل الأحوال ومكاسبها هى :

١ ــ التخلص من صلاح حسين : كزعيم محتمل خطره بين الفلاحين .

٢ ــ ارهاب الاقطاع وعائلة الفقى وابتزازهم لعائد منافع شخصية ، والمزايدة بهم فى الشعارات الطنانة المفيدة لواجهة الاعلام المزيف الثورية ــ (لم يتم اعدام أحد من عائلة الفقى وحكمت المحكمة ــ كما سنبين ــ ببراءتهم مما خول لهم حقوق التعويضات الهائلة التى دفعتها لهم السلطة نفسها فيما بعد ــ فى حكم السادات ــ مقابل الاضرار والتعذيب الذى لحق بهم : فكأن السلطة كانت فى الواقع تؤجرهم » ملطشة « لبعض الوقت عازمة فى ضميرها أن تدفع لهم أجر ذلك فيما بعد !) .

٣ ــ اقامة حفلة زار ضخمة يتطوح فيها الجميع : صارخين بلعن الاقطاع ، فيتم الهاب التعلق « بالشجيع » عبد الناصر ، الذى لا بأس أن يذهب فداء له أى شىء وأى

احد ولو كان عالما فذا لا يعوض مثل الشهيد سـيد قطب ـ روحي فداه ـ

ونجحت الخطةاللا أخلاقيـة لسلطة عبـد الناصر .. اجلت الخطب والبيانات والحملة الاعلامية ضـد الرجعيـة والاقطاع .. الخ غضب الفلاحين الفورى وحركتهم العفوية وغضب شاهندة الثورى العاصف : وتم الاعلان عن محاكمة عسكرية لعائلة الفقى ، بعد القبض عليهم ، وممارسة الهواية الناصرية عليهم الا وهى هواية : « التعذيب الفاحش » الذى كان يتم ويمارس على كافة التيارات السياسية الملقاة خلف سجون عبد الناصر الشهيرة .

بعد الاعلان عن المحاكمة العسكرية : توقف مهرجان حفلة الزار ضد الاقطاع ، وفتر بعـد أن استنفذت أغراضه الدعائية والسياحية السياسية ، ثم تطور الموقف الى نتيجة ضعق لها الفـلاحون : بعد أن تأجلت المحاكمة العسـكرية عامين من ١٩٦٦ الى ١٩٦٨ ، قرر عبد الناصر تحويلها الى قضية عادية تنظرها محاكم عادية .

ونظرت محكمة صـادق المهدى بدار القضـاء العالى المهزلة ! لم تعد القضية محاكمة عائلة الفقى أو الاقطاع ،

بل تحولت فى صيف ١٩٦٨ الى محاكمة ظالمة جائرة للشهيد المقتول صلاح حسين : وبدأنا نشـــاهد قرارا جديدا باعدام صلاح حسين .. لكنه كان بشكل مختلف : تشويه صورته الوضيئة .. ما بين صورة فارض الاتاوات على الفلاحين .. البلطجى .. المنحل .. الى صورة التـــافه ، المغـــرور ، فاقد القيمة ، المدعى الى صورة المتطرف الدينى ، والشيوعى الملحد ، الذى حول كمشيش الى بؤرة للعمــــالة للاتحــــاد السوفييتى ! ولم تكتف المحاولة الاجراميـــة بهذا التشـــويه الحاقد الموتور بل قررت أن تلوح بتهديد لزوجته شاهندة ، أن « مجـــرور » أجهـــزة الأمن والدعاية جاهز بنثر ظلال وشبهات الوحل حول عرضها كامرأة !

ففى أوج ما بعـــد عام الهزيمة المرة ٦٧/٦ وذلك فى ٦٨/٥ : وقفت « شاهندة مقلد » أرملة الشهيد صلال حسين مع الفلاحين فى دار القضاء العالى ، غير مسموح لهم بعرض قضـــية مقتل شهيدهم ، بل تولت النيابة عرض القضـــية ــ بفتور ــ بصفتها ممثلة للدعوى التى أقامتها « الدولة » ضد عائلة الفقى . وفى المقابل وقف المتهمون ممثلين بهيئـــة دفاع من كبار عتاولة مهنة المحاماة ، الذين يمثلون بواقعهم الفكرى والاجتماعى العقلية الاستكبارية بأبشـــع أحوالها ،

حين تطمح لتكون من الاقطـــاع . وكان من المعروف أن كل محام قد تسلم من العائلة الاقطاعية ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه : ووقفت هيئة الدفاع ـ بعقليتها هذه ، السادرة فى الرجعية والتخلف وارتزاقها الواضح من العائلة الاقطاعية ـ وقفت تسب وتلعن كل أسس الفـــكر الاشـــتراكى ـ (المفروض أنه كان شـــعار الدولة) ـ وتسخر مما يسمى « الاشتراكية العربية » ـ (وهجومها هذا بالطبع لم يكن لصالح الدعوة الى الاسلام وأنما لصالح الجشع والطمع) ـ وتدافع عن حـــق الاقطاع فى اقتطـــاع ما يشـــــاء من أرض وثروة .

ـ (وما زلت أذكر المحامى الذى وقف يصرخ : « ملك الملوك اذا وهب .. لا تسألن عن السبب » فى معرض ارساء مبدأ أحقية الاقطاعى المستكبر فى سرقة حق المستضعفين من الفلاحين) ـ وظلت هيئـــة الدفاع تندد بالشهيد صـــلاح حســـين ـ « القتيـــل الغـــــائب الذى لا يملك الدفاع عن نفسه .

وكان هنـــاك تنبيه علينا فى الصحف الا نتـــابع هذه المحاكمة كصحفيين . ومنعت الرقابة نشر أى شىء عن المحاكمة

او القضية ، وكان هنـــاك أمر بحذف كلمة ((كمشيش)) لو جاءت عرضا فى قصيدة أو قصة أو مسرحية أو مقال ، وذلك حتى لا تتحول القرية وشهيدها الى ملحمة وطنية تترسخ فى مشـــاعر المواطنين ؛ ولم يكن فى المحكمة شهود عيـــان من الصحفيين الا ثلاثة :

١ ــ لطفى حسونة : مندوب أخبـــار اليـــوم وموالى للفقى .

٢ ــ محمد عودة : الكاتب السياسى الناصرى ومفروض أنه يؤيد الفلاحين ومتعاطف مع موقف شاهندة ، الا أنه كان موفدا من قبل قنوات السلطة الناصرية ، لينفذ تعليماتها فى مص غضب الفلاحين وشاهندة والسيطرة عليهم ، بتوجيــه النصـــائح والاقتراحات الكفيلة باحبـــاط انفعالاتهم ، حتى لا يفلت زمامهم فى قاعة المحكمة أو خارجها .

٣ ــ وكنت أنا الصحفية الثالثة ــ (حاضرة بقرارى الذاتى ، بصفتى ناقدة مسرح ، ، لأكون شاهدة للتـــاريخ ؛ علنى أتمكن ، فى يوم من الأيام ، أن أقول لأبناء أمتى الحقيقة التى رأيتها) ــ كنت أجلس مذهولة ومندهشة لكل ما يدور ولا أكاد أصدق أن هذا يحدث فى ظل حكم ادعى تحمل مسئولية القصاص للشهيد المقتول ، ويرفع الاشتراكية وحق الفلاحين

شعارا من شعارات سياساته الرئيسية .. وكنت اقول فى نفسى : لو أن هذا حدث فى ظل حكم آخر ، لقال عباد وعبيد عبد الناصر : « لو كان عبد النـــاصر موجودا أو على قيـــد الحياة لما حدث هذا ! »

وها هو يحدث وعبد النـــاصر على رأس الحكم وعلى قيد الحياة ، متباهيا يظهر فى التليفزيون يهدد الشعب ، بعد مظاهرات الطلبة للاحتجاج على هزيمة ٦٧ فى مطلع ١٩٦٨ : « انا عندما أردت ـــ اعتقلت ١٨ ألف مواطن فى يوم واحد » ! ـــ مشيرا الى مذبحة الاعتقالات فى الصيف الأسود ١٩٦٥ .

وقتها نبهت شـــاهندة : ان ما يحدث ليس صـــدفة ، وليس معبرا عن هيئة دفاع مغرضة ورجعية فقط .. ولكن الأمر أخطر .. وقلت لها اننى أكاد أصل الى حد اليقين ، أن سلطة عبد الناصر طرف له مصلحة فى اغتيال صلاح حسين ، والا لما سمح للأمور أن تصل الى هذا المدى ، بحيث صـــار القتيل هو الجانى وصار القتلة من المجنى عليهم .

وصدر ـــ ماتوقعته ـــ من قرار للمحكمة ببراءة الاقطاعى العتيد وتم التنويه بأن القضية قضية ثأر عادية ، وليس لها

علاقة بالسياسة ، ولا تمثل هجمة للاقطاع على الثورة والقوانين الاشتراكية !

وصعقت شاهندة وصعق الفلاحون وقرروا الخروج بمسيرة احتجاج . وهنا تدخل الأستاذ محمد عودة ليؤدى دوره الموكول اليه بتبنى غضب الفلاحين وثورة شاهندة واحتوائهما ، تمهيدا لتبديدهما أدراج الرياح : وفعلا نصح شاهندة بكتابة نص احتجاج على هذه المحاكمة وتبرئة الاقطاع ، يوقع عليها المثقفون تضامنا معها ، وترفع لعبد الناصر .. ورغم أن شاهندة كانت توافقنى قلبيا على رفض الانصياع لنصائح الأستاذ محمد عودة ، ودائرة المثقفين — الثوريين مع وقف التنفيذ — من نوعيته .. الا أن شاهندة كانت تعرف أن قدراتها محدودة هى وفلاحيها .. ولم تكن بقدرة التصدى المفرد لسلطة عبد الناصر وأجهزة أمنه ، التى تتشهى ذبحها — (وعلى قمتها وزير الداخلية شعراوى جمعة) وبدا لى كأنه كان محتوما على شاهندة * أن تواصل الحرب ضد عبد الناصر من خلال عبد الناصر فى غياب حركة اسلامية تشد الجميع الى نورها .

---

* تجدر الاشارة هنا الى ان السيدة شاهندة مقلد لا تزال الى الآن تمثل وجها من وجوه التيار الناصرى ، وهى واحدة من اهم الكوادر البارزة فى حزب التجمع اليسارى .

كان الموقف واضحا ـــ لدى كل الصادقين من المثقفين الوطنيين الأحرار ـــ بأنهم يقفون فى موقف حرج بين :

١ ـــ تيار استكبارى رجعى يسفر عن مفهومات رجعية متخلفة ويضمر الكراهية والمعارضة لعبد الناصر على أساس أنه يحقق الاشتراكية التى هى ضد مصالحهم .. وهم يكرهون الاشـــتراكية ليس حبـــا فى الاسلام ، ولكن لأنهـــا تفرض الحراسات على اللصوص من المستكبرين ، لصـــالح الفقراء من المستضعفين ـــ (وهذا هو التيار الذى استمر وســـاد السلطة المصرية تحت حكم محمد أنور السادات ، حيث كان السادات أحد ممثلى هذا التيار .. بل ركيزته الأساسية فترة حكم عبد الناصر .. وهو مع صفته هذه كان محل ثقة ورضاء كامل من عبد الناصر ، الذى صفى كل أصدقائه وزملائه من مجلس قيادة الثورة ـــ على مدار ســـنوات حكمه ـــ وكان السادات من القلائل ، الذين ظلوا الى النهاية متمتعين بثقة عبد الناصر ، سالمين من غدره) .

٢ ـــ تيار ثورى انتهازى : يتكلم بلغة الثوار ، ويستخدم اصطلاحاتهم ، ويصفق للاشتراكية ـــ (حيث يتفق مع الرجعية فى ترويج أكذوبة أن عبد الناصر حقق الاشتراكية والعـــدالة

الاجتماعية للشعب المصرى المغدور به . والفارق أن الرجعية كانت حزينـــة لذلك ، وهم كانوا سعداء والواقع أن كلاهما كان متوهما وكاذبا فى سبب حزنه وســـعادته ، لأن الواقع الذى كان يعيشه الجميع أثبت أن اشتراكية عبد النـــاصر مزعومة ، أو أنها كانت عاطلة التنفيـــذ والجدوى ، الى حد انتفائها وغيابها كلية) ــ وكان هذا التيار بانتهازيته يجمع مكاسب مادية هائلة ، يسوغها لنفسه بمقولة : « الاشتراكية لا تعنى الفقر .. الاشتراكية من أجل حياة أفضل » ! وكانت وظيفته الأساسية أن يزور حقيقة عبد الناصر ، ويجعل منه وثنا معبودا له خوار ، ويفلسف كل أخطائه ويبررها ، ويدافع عنها أمام الرأى العام العربى والعالمى ، ويقوم بدور تشويه وسحق مجمـــوعة المثقفين الشرفاء من الحركة الاســـلامية والعلمانية على السواء ، ويتهمهم بالتطرف والطفولة الثورية والارهاب والشغب ! ــ (ونجد امتداد منهج هؤلاء وبعض عناصرهم يتمثـــل فى النوعيات التى تقـــود أحزاب وصحف ومؤتمـــرات المعارضـــة العلمانية حاليـــا فى عصر ما بعـــد السادات !) ــ

كان هذا التيار يهندسه ويقـــوده الصحفى الأوحـــد « محمد حســـنين هيكل » وتحت ابطه مســـاعده « لطفى الخولى » ــ قبل أن يغدر به ــ بالاضافة الى ثقلين ثقافيين

رئيسيين هما : توفيـق الحكيم ونجيب محفـوظ : (هاتان الشخصيتان الزئبقيتان اللتان أثبتتا قدرة شيطانية رهيبة في القفز واللعب على حبال كل التيارات بحيث أمكن لهما الامتداد والاستمرار في مكانتهما الراسخة العالية لدى كل سلطة مهما تغيرت الأقنعة واللغة واللهجة والصوت) . وكان اسم كل من هؤلاء يحتكر تحت امرته وحمايته طابورا من أسماء عديدة — « معظمها ناصرية وماركسية وتوليفة الماركسية الناصرية والناصرية الماركسية) — وكان كثـير من تلك الأسماء على علاقة عمل وثيقة مع وزير الداخليـة آنذاك وهـذه الأسماء انقسمت في عهد السادات الى قسمين :

١ — جزء : رضى السادات أن يضمه الى مؤيديه مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى ... الخ ، مع ركائزه الثقافية الأساسية برئاسة يوسف السباعى .

٢ — الجزء الآخر : رفض السـادات أن يضـمه الى مجموعه أو طقم خدامه : مثل لطفى الخولى وجماعته رغم الكتاب الذى ألفـه لطفى الخولى : « مدرسة السـادات السياسية » . وظل الخولى وجماعته يتزلفون للسادات الى

آخر لحظة ويسمون حكومته : « حكومة وطنية » لابد من دعمها وكانوا يهاجمون حركة الطلبة المعارضة التى تصدت لزيف شعارات السادات الديمقراطية منذ البـداية .. ولم تنقلب هذه الجماعة على السادات الا حين تأكد اصراره على رفضهم حين أغلق مجلتهم « الطليعة » و « الكاتب » وعوق مجالات رزقهم ونشرهم .. هنا بدءوا يعزفون الحان المعارضة العالية جدا حتى أنها صارت أعلى الأصوات جميعا !

ـ ! كان شعراوى جمعة وزير الداخلية من نوع عجيب : فعلاقاته بالمثقفين والصحفيين والكتاب كانت اقوى واكبـر من علاقاته بعساكره ومخبريه وضباطه .. ليس ذلك بسبب أنه شرطى مثقف ولكن لأنه شرطى قمع ذكى عرف ـ بعـد قمع المقاومة الاسلامية ـ من أين يمكن أن تهب الريح الخطرة وكان يرعى بنفسه بعض الشعراء والكتاب الشباب ـ منهم عبد الرحمن الأبنودى الذى أفاده فيما بعد فى محاربة الشاعر أحمد فؤاد نجم والشيخ امام . وجعل شعراوى جمعة من نفسه قطبا أدبيا فتولى رئاسة مؤتمر الأدباء الشباب الذى عقد بالزقازيق عام ١٩٦٩ وكانت ظاهرة غريبة عجيبة تساءل فيها الجميـع : لماذا يراس وزير الداخليـة مؤتمرا لأدب الشباب ؟ وما مهمة وزير الثقافة اذن ؟

والغريب ان يوسف السباعى كان يجلس الى جواره فى هذا المؤتمر ودودا مبتسما متشرفا برئاسة وزير الداخلية رغم أنه كان ـــ فيما بعد فى زمن السادات بعد عامين فقط ـــ ممن مزقوا وجناتهم لطما ، وحزنا من سنوات القهر التى مارسها شعراوى جمعة ومراكز القوى .

بين أشواك هذين التيارين الرهيبين ، وقفت العناصر الثورية الصادقة والشريفة موقفا صعبا : كان عليها أن تسلك طريقها وتؤدى مهمتها فى نقد وفضح زيف ودجل سياسة عبد الناصر السرابية من دون أن تقع فيما يشمت الرجعية الاستكبارية ويشجعها ، ومن دون أن تعطيها ما يمكن أن تستغله لضرب الطموح الثورى للفقراء المستضعفين من أبناء الشعب المصرى ، والطموح الثورى لتحرير مستضعفى المنطقة من الاستعمار والصهيونية من الوجود الأمريكى الاسرائيلى ، للسيطرة والهيمنة على مقدرات هؤلاء المستضعفين من شعوب المنطقة بالقوة والاغتصاب والمؤامرات الغادرة . كان عليها أن تنجح فى ذلك ، ومن دون أن تقع كذلك فى تحالف مع نغمة الطبل والزمر والخطابة الجوفاء ، التى يعزفها الانتهازيون فى صلاتهم الوثنية لعبد الناصر . وكانت المشكلة أن هذه العناصر الثورية الشريفة كانت

ـــ ولا تزال ـــ مشتتة لا يعرف بعضها البعض الا فى النادر .
وكانت تدرك عزلتها ووحشتها أمام التيار القـــوى الغالب للمثقفين الانتهازيين : خاصة التيار الذى يحتضنه ويشرف عليه محمد حسنين هيكل ـــ ظل هذا الموقف بواجه المعارضة الصادقة للسادات بعد موت عبد الناصر : اذ وجدت المعارضة الصادقة للسادات نفسها بين أظافر السادات الشرسة التى نهشت عبد النـــاصر لأهداف خاصـــة وبين تيـــار الوثنيين والانتهازيين ـــ الذى رفضهم السادات ـــ ورفع هذا التيار وثن عبد الناصر ـــ حتى بعـــد هلاكه ـــ لابتزاز السادات مستمرا فى محاولة ارهاق مصر بزجها فى تلك الحلقة المفرغة : السادات ـــ عبد الناصر أو عبد الناصر ـــ السادات .

وكانت العنـــاصر الثورية الصـــادقة تستمد موقفها ـــ اغلب الأحوال ـــ من مبدئيتها الأخلاقية الذاتية ، وكرامتها الانسانية . وكان بعضها له تماس مع الماركسية ، وبعضها له تماس مع مواثيق ثورة يوليو ، ويظن أنه بالامكان انقـــاذ عبد النـــاصر من انحرافاته ، لو أتاح الفرصة والأمان لكى يستمع الى الملاحظات المحبة والمخلصة : وكان بعضها عناصر وطنية اســـلامية ـــ خارج الاخوان المسلمين ـــ تعـــارض

الماركسية باعتبارها فكرا يساريا يعوق مسار الثورة الاصيلة الطامحة الى التحرير بمنطلقات العروبة والاسلام ، وكانت ترى عبد النـــاصر عائقا ضخما فى المســـار الصحى للثورة ، اذ أنه يزحم الساحة ولا يزيدها الا خبالا .

قبـــل هزيمة يونيو ــ حزيران ١٩٦٧ كانت الساحة المصرية تنضج بكل العوامل التى من شأنها أن تقـــود الى هزيمة ! .

ولم يكن هذا الحدس أو هذا الفهم خافيا على أحد من المبصرين ، حتى أحد الشـعراء الشباب ــ « محمد ابراهيم أبو ســـنة » ــ نشر فى مجلة تصدر ببيروت عام ٦٥ ــ ٦٦ قصيدة بعنوان « غزاة مدينتنا » يحكى فيها عن مدينته التى دمرت ونهبت وينهبها بقوله : « كنا نحن الأعداء : كنا نحن غزاة مدينتنا ! » .

كان عبد الناصر يعلن فى المؤتمر الصحفى العالمى عن صواريخ القاهر والظافر وكيف أنها بقوة تصــــل الى مدى يلامس « جنوب لبنان » ــ (وكان يضحك قاصدا الغمز الى ما يعنيه بجنوب لبنان هو أرض فلسطين المحتلة بالكيـــان الصهيونى) ــ وكانت شاشات التليفزيون تعكس ثقته بنفسه

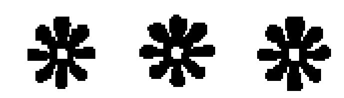
وتعكس العيون القريرة من رجالاته فى الأمن وفى الفكر والفن والثقافة المعجبة به ، المدلهة فى حبه .

وكان الشعب رغم كل أزماته وكل تضحياته وكل جوعه وقهره وآلام أمراضه فرحا مؤمنا بأن عبد الناصر ــ كما أفهموه بالطبل والزمر فى الصحف والاذاعات ــ لا شك قادر على هزيمة الكيان الاسرائيلى ودخول تل أبيب وكان يهتف .

« عبد الناصر يا حبيب بكره ندخل تل أبيب »

وكان هذا الشعب المخلص الفقير على استعداد ان يتطوع حتى بجلده ــ بعد أن يفقد جلبابه الوحيد ــ فى سبيل الحرب المصيرية : ولم يكن على استعداد مطلقا أن يقول له أحد ان آخر الصبر وشد الأحزمة على البطون من أجل المعركة يمكن أن يكون بالنهاية سرابا ومذبحة فى صحراء سيناء ! .

وللأسف حدث آخر ما كان يريده الشعب المصرى وحدث ما توقعته زرقاء اليمامة الطليعة الواعية التى رأت وتكلمت وحذرت ففقئوا عينيها .



مع اعلان الهزيمة النـكراء باسم « النكسة » أعلن عبدالناصر تنحيته ١٩٦٧/٦/٩* . وتصور الشعب الطيب أن « قوى خارجية »، أو « قوى داخلية » قد أرغمته على هذا القرار فكان أن هبت الجماهير برد فعـل قوى أخذ شـكل الخروج الى الطـرقات بلا ترتيب مسبق ، ترفض ما يمكن أن يكون اذلالا لسيادتها . والتفوا يساندون عبد النـاصر « الرمز » ويستنقذون فيه كبرياءهم القومى وعنادهم الصلب تماما كما ساندوه من قبل فى أزمة ١٩٥٦ . واعلنوا فى هتافاتهم « بالروح بالدم حنكمل المشوار » قاصـدين مشوار الجهاد ضد الكيان الصهيونى حتى التحـرير والنصر . وكان موقف الشعب العظيم — رغم دماء أولاده التى لم تجف بعـد على رمال سيناء — كان أكبر وأعمق من أن يستوعبه عبد الناصر بمنهجه الذاتى . وككل شىء عظيم قدمه الشـعب المصرى واستغله عبد الناصر لنفسه ، نزلت مظاهرات ١٩٦٧/٦/١٠ من الجماعات الموجهة من السلطة محرفة للشـعار التلقائى

---

* تجدر الاشارة هنا الى ان عبد الناصر عين خليفة له شخصا كريها هو زكريا محيى الدين ، وكانه كان يتنحى من ناحيـة ويدعو النـاس الى التمسك به من ناحية اخرى .

المجيد الذى اعلنته روح الشعب الفدائية وتم تشويهه الى : « بالروح والدم نفديك يا جمال » ! .

وشتان بين منهج يقول بالروح والدم فداء للمعركة ، ومنهج « وثنى » يكرس الروح والدم من أجل « فرد » : ولكنها كانت العقلية الناصرية المريضــة بعبادة الفرد « والفردية » التى تبدت بجلاء فى شخصية عبد النــاصر « الرجل » وفى جماعته المسماة بـ « الناصريين » فى زمانه وحتى الآن : عقلية تكريس « الكل » من أجل « الفرد » أو « الجزء » بدلا من تكريس « الفرد » و « الجزء » من أجل « الكل » : وهــذا ما يفسر لنا لماذا سمى أتباع سياسة عبد النــاصر أنفسهم بـ « النــاصريين » ــ مناصرة للرجل ــ ولم يسموا أنفسهم مثلا بـ « اليوليويين » نسبة الى ثورة « ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » . وهذا أيضا ما يفسر لنا فرحتهم كلما شاهدوا صورة لزعيمهم أو سمعوا له صوتا ، ويثــيرون القضــايا من أجل تسمية « بحيرة السد العالى » بهذا الاسم الكلى الراقى مطالبين بعودة الاسم الذاتى الســارق لجهــد الشعب المصرى : « بحيرة ناصر » . العقلية الناصرية التافهــة السطحية التى ما ان تسيطر على اذاعة أو بوق اعلامى حتى تسارع الى اغراقه بركام الأغنيــات المخجلة عن « البطل اللى جابه القــدر » و « عرفونى وقالوا لى انت من بلد ناصر » و « الفــارس المارد العربى .. جمال » ... الخ .

وتشهد الحقيقة الفكرية لهذه الأغنيات كلها على تصور رجعى بدائى : حيث ان البطل لم يأت به الشعب ولم يبلوره من خلال تضحياته لا : بل « جاء به القدر » .. وبدلا من أن تكون مصر هى « الكل » الذى ننتسب جميعا اليها ومعنا عبد الناصر : صار العكس : وصرنا جميعا ومعنا مصر والأمة العربية : ننتسب الى « فرد »، « مارد »، « فارس » « واحد » اسمه جمال عبد الناصر ؛ ولا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

مرحلة ما بعــد الهزيمة :

عاش عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ ثلاث سنوات وثلاثة أشهر و ٢٣ يوما حتى هلاكه فى ١٩٧٠/٩/٢٨ : سما أو غما : الله أعلم .

حين ننظر الى هذه الفترة الآن ، لا نستطيع أن نهرب من مواجهة حقيقة لم تخف على أحد ــ (وان أخذت أسماء عديدة) ــ وهى : أن عبدالناصر كان يتحلل تدريجيا وينكمش ، واخذت أوراق لعبه السياسية تتكشف بجلاء ، حتى لمحبيه والباقين على حماسهم لشخصه . ومع احساسه بفقدان هيبته وتأثيره الأول ــ خاصة عنــدما قامت أول مظاهرات معارضة له فى أوائل عام ١٩٦٨ ، بعد صدور أحكام ما تعرف بقضية الطيران ــ لم يجد عبد النــاصر حرجا فى أن يدين أسلوب المظاهرات بشــكل مطلق ، حتى تلك المظاهرات الوطنية التى شارك فيها فى الثلاثينات فى الاسكندرية ، والتى طالما افتخر بها كدليل على نضاله الوطنى منذ صباه . وظهر عبد الناصر فى التليفزيون يلقى خطابا غاضبا على الأمة ويعالج

موضوع مظاهرة الطلبة ، بأسلوب ناظر مدرسة يمسك العصا وان كان يؤجل استعمالها لعدم ثقته فى قوته وتأرجح مركزه وتكلم عن الطلبــة على أساس أنهم : « شوية عيـــال مش فاهمين حاجة » . وقال انه لن يعاقب ولن يعتقل أحدا منهم لكنه سيتركهم لآبائهم يؤدبونهم — (على أساس أن الآباء قد ذاقوا بطشه ولم ينسوه بعد !) — ولوح — بلا خجل — لماضيه العريق فى اصـــدار قرارات الاعتقال ظلما وبلا روية قائلا : « أنا كنت أقدر أحبسهم .. انا فى ١٩٦٥ اصـــدرت قرارا باعتقال ١٨ الف فى يوم واحد ! » — (متناسيا أن تراكمات هذه المظالم هى التى أدت الى هزيمته وفشله) .

وأدرك غالبية المثقفين الشرفاء : أن عبد النـــاصر لم يتسامح مع هذه المظاهرات المحتجة لطيبة قلبه ، ولكن لأنه فعلا لم يعد قادرا على أن يقوم بدور « الوحش الكاسر » ضد الشعب المصرى : هذا الدور الذى أجاد اداءه قبل أن تسقط آخر أوراقه وتكتمل هزيمته بفضيحة حرب الأيام الســـتة ، التى لم يخضها فى ١٩٦٧/٦/٥ . وكان على عبد النـــاصر والوضع يتدهور أن يلجأ الى تكتيكه التقليدى وهو : أن يشعل البلد فى ضجة بلا طحن أو طحين . وبدأت هذه الضجة الفارغة بانزال قيادات حزبه السرى لـــكى تقيم يوميـــــا ندوات

المبلغ الباهظ ، ولذلك قررت ادارة التليفزيون عرضــها على شاشتها حتى قبل أن ينتهى العرض امعانا فى نشر الرســالة الضالة المضلة على اكبر عدد من الناس . والغريب أن بعد كل هذا الاحتفاء من سلطة عبد الناصر ومراكز قوته بتحية كاريوكا ، وفايز حلاوة ، وجدناهما ، **حين أطاح الســادات بمراكز القوى يخرجان مع من خرجوا من تحت ابطى السادات لاعنين سابين مراكز القوى ، وأصبحا مع من أصبحوا من اعلام الثقــافة فى عصر ((ثورة !)) مايو الساداتية** : ولكن لا عجب الم يكن السادات نفسه مركزا من مراكز القــوة فى سلطة عبد الناصر ، واحد الرؤساء فى الحزب الطليعى السرى الذى أنشأه عبد النــاصر سريا على الشعب المصرى ، حتى يطوقه من كل منفــذ ؟ فبينما كان محظورا على الشعب أن ينشىء تنظيما سريا ضد الحكومة أباحت الحكومة لنفســها انشاء التنظيم السرى * ضد الشعب ، مستمرة فى سرقة الشعب : دوره وحقوقه على كل شكل) .

فى نفس الوقت منعت السلطة السياسية وعوقت الكثير من مسرحيات القطاع العام ـــ الذى كان لا يزال يتعامل مع

---

* كان محظورا على الشعب أولا ان ينشىء تنظيما علنيا يقوم بمهمة المعارضــة .

المصائب التى توالت بعد الهزيمة ، من قبول للقرار ٢٤٢ — (الذى يتضمن اعتراف مصر بحدود آمنة معترف بها لاسرائيل) — الى مبادرة روجرز ، الى مذبحة المقاومة التى ارتكبها الملك حسين ملك الأردن — (وكانت المقاومة الفلسطينية تذبح فى أيلول — سبتمبر الأسود سنة ١٩٧٠ ، وكان الشعب المصرى يضع على أذنه المذياع ، ويستمع الى صرخات العطاشى ونداءات المقاتلين ، وهو مذهول لصمت وتلكؤ عبد الناصر ؟ وأذكر أننى دخلت مستاءة مكتب رئيسى : رئيس وجعفر النميرى من السودان ، والقذافى من ليبيا ، للذهاب الى الأردن لمشاهدة ما يحدث وتقديم تقرير عنه ! ثم ازداد ذهول الشعب المصرى لاستقبال عبد الناصر للملك حسين ، والاجتماع به فى القاهرة بعد مذبحته الاجرامية . وكانت الناس تتساءل غير مصدقة : هل هذا هو عبد الناصر ؟ هل هذا هو عبد الناصر ؟ وأذكر أننى دخلت مستاءة مكتب رئيسى : رئيس تحرير مجلة المصور وقلت له : كيف يستقبل عبد الناصر الملك حسين بعد كل هذا ؟ فقال لى : صحيح استقبله لكنك لا تعرفين أنه رفض أن يصافحه !؟) — مضافا الى كل هذا كانت التنازلات الواضحة المستمرة عن مبدأ الاشتراكية — ولو أنه كان مجرد شعار — وبدأت العودة الى تدعيم القيم التى كانت السلطة وكتابها من قبل يزجرونها ويسمونها :

« القيم البرجوازية » ! بدأ تدعيم هذه القيم « البرجوازية » من خلال المجـلات والصحف ، ومعها تدعيم نزعة الاقليمية المصرية ، والتراجع عن نزعة القومية العربية وتمثل هذا فى احتضان وتشجيع مسرحية مريبة من القطاع الخاص ! اسمها « ياسين ولدى » لفرقة تحية كاريوكا من تأليف فايز حلاوة وأخراج كرم مطاوع تطرح نزعة الاقليمية المصرية عالية وحادة الى درجة الهستيريا ــ (مماثلة للنغمة التى ارتفعت فى جنازة يوسف السباعى ١٩٧٨/٢/١٩ حين ارتفعت الهتافات التى خرجت عن العقل : لا فلسطين بعد اليـوم !) ــ وركزت المسرحية على نغمة ان كل المصائب التى حدثت لمصر العروس الجميلة بسبب العرب ــ (بحيث أصبح العرب لا الكيان الصهيونى هم أعـداء الشعب المصرى) ــ ورغم السماجة الفنية التى عرضت بها هذه المضامين الخربة المريضة لاقت هذه المسرحية رواجا بين الكتاب والصحفيين : لا فرق بين من يدعى أنه تقدمى مؤمن بالقومية العربية وبين من هو مثل موسى صبرى ــ **(ثلاثة رقصوا حتى ماتوا من الاعجاب بهذه المسرحية هم : د . يوسف ادريس ، يوسف السـباعى ، موسى صبرى** ، وحضر هـذه المسرحيـة ممثلون للسلطـة السياسية ــ شعراوى جمعة وزير الداخلية ، وضياء الدين داود وعبد المحسن أبو النور . وخرجت الاشاعات تقول :

ان شعراوى جمعـة تقدم عونا ماليا لفرقة تحيـة كاريوكا كعريون اعجابه بمسرحية « ياسين ولدى » ـ (كانت تحية كاريوكا مصدر هذه الاشاعات فقد كان يعجبها أن تلقى على نفسـها ظلال الثقافة والسياسة وكانت تريد أن ترهب من يهاجم المسرحية : والطريف أنهـا أقسمت ـ حين سمعت بمهاجمتى للمسرحية ـ أنهـا سوف تضربنى لو وجدتنى فى مسرحها : مما دفعنى الى حضـور المسرحية مرتين دون جدوى : اذ أنها لم تضربنى للأسف !) ـ ورغم التقييم العام بأن السلطة السياسية لم تكن ارفع مستوى من عقلية تحية كاريوكا ، الا أن الدهشة ظلت لا تفارق المثقف الشريف ضمير الشعب المصرى ـ (وربما مثل الدهشة أمام الموت رغم انه قديم وحق) ـ : تلك المسرحية ترمى الى اشاعة حالة مرضية من الشفقة على النفس لدى الشعب المصرى المتعب المجروح المخـذول : موهمة اياه أن المصائب جاءته بسبب انغماسه وتعاونه العربى ، وذلك بقصد تحويل اصبع اتهامه الى صدر العروبة بديلا عن صدر السلطة المصرية المهزومة : المسئولة حقا وفعـلا بقيادة جمال عبد النـاصر عن نكبات الشعب المصرى .

(كانت بطاقات المسرحية تصـل الى خمسة جنيهات وما فوق ولم يكن لجماهير مصر الفقيرة أن تدفع ربع هذا

لمناقشة الاستعدادات للمعركة والاجابة على تساؤلات الناس :
لماذا لا نكون جيشا شعبيا ونمارس حرب العصابات تنطلق عبر الضفة الأخرى من القناة ، ولا تعطى المحتل فرصة يهدا فتعــوق استقراره حتى ننتهى من اعادة بنــاء الجيش ؟ ــ ــ (مثل الدور الذى كان يقــوم به الشعب المصرى ضــد معسكرات ألانجليز وضــد تواجدهم فى القناة سنوات مطلع الخمسينات قبل الثورة) .

وحضرت وقتها ــ بصفتى الصحفية ــ مؤتمرا عقــده السيد عبد المجيد فريد فى حى العباسية ــ الذى أسكن به ــ وكان يقــول للناس ــ ببرود مع استخفاف محكوم وملجوم بحرج الموقف ــ ما معنــاه : « لا تشغلوا بالكم أنتم بهــذه الموضوعات واستمروا فى العمل والانتاج ، وثقوا بأن القيادة السياسية عين ساهرة لا تنام ! فقط عليكم تهيئة جو الهدوء ؛ حتى تفكر بذهن صاف .. وان شــاء الله .. ان شاء الله حنخوض المعركة بس اعطونا فرصة نستعد ! » .

وأيقنت ساعتها ، أن هذه الندوات ليست ألا حفلات « زار » ، لانهاك الشعب المجروح فى دوامتها ، الى أن تمتص طاقة حزنه العصبية ، وتهدهده لكى ينام ولا يفتح عينيه على

بعض الكتاب الشرفاء الموالين لشعارات عبد الناصر الخاصة بالاشتراكية والتقدمية ، والمعارضين للواقع الكاذب الذى لا يحقق اشتراكية أو تقدمية أو نضالا شعبيا أو نظاميا .
وكان من هؤلاء الكاتب المسرحى اليسارى ميخائيل رومان الذى قدم مسرحية « العرضحالجى ــ الزجاج » وأوقف عرضها لاشتداد حدة تفاعلها مع جمهور المشاهدين حيث كانت صرخة ضد الزيف والهوة الواقعة بين القول والفعل .
أما مسرحية الشاعر نجيب سرور « آه يا ليل يا قمر » وصرختها :

« مصر يا أمة يا منكوبة دايما
بالخيانة ، والخناجر فى الضهور ... »

فقد كانت هدفا لهجوم منسق من قبل نقاد وكتاب الحزب الطليعى السرى ، لارتفاع نغمة الحزن بها (١) ! ولم يرحب كتاب الحزب الطليعى السرى ــ مع ترحيبهم بياسين ولدى الا بمسرحية غريبة ــ مريبة كذلك ــ لعبد الرحمن الشرقاوى اسمها « وطنى عكا » (٢) : عكست منذ ١٩٦٩ خط الدعوة للسير حثيثا نحو الصلح والاعتراف باسرائيل .

---

(١) انظر ملحقات رقم ١ .
(٢) انظر ملحقات رقم ٢ .

فى هــذا الطقس الذى استمر منذ ١٩٦٧ الى هلاك عبد الناصر : كان كل الصادقين من أبناء مصر يشعرون أن دفة الأمور لم تكن تسير وفق ما يجب أن يكون : كنا جميعا نشعر أن علينــا أن نستعد بتكريس كامل جاد للاجابة على هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ كنا نؤمن ــ مع كل الشعب ــ بضرورة تكوين جيش لخوض حرب شاملة ((صــادقة)) تؤدى فعلا حقيقيا ضد العــدو بلا استعراض واجهات تجارية كاذبة ، وكنا نرى بوضوح أن سياسة عبد النــاصر واجراءاته تجرى فى اتجاه مضــاد لما يريده الشعب المصرى المخــذول . كنا نرى « السياحة السياسية » مستمرة : تماما كما كانت قبل الهزيمة ، وكان عبد النــاصر يتكلم فى النهار عن النضــال وما يجب أن يسترد بالقوة ؛ وفى النهار أيضا ، كانت سلطات قمعه تحرق كل بذور ونوايا النضــال . وكان محمد حسنين هيكل يخرج لنا كل جمعة بأفيون صراحته ، يغالط فى ضوء الشمس كل الحقائق الصارخة ويقول : اننا لا نستطيع أن نحارب مثل فيتنام لأن فيتنام دولة فقيرة وشعبها بدائى وليس لديه ما يخسره : أما شعب مصر فشعب عريق : لديه السد العالى ، والأهرامات ، ولا يجب أن يعرضها للدمار والنسف ، بدخولها حربا مثــل حرب فيتنام ــ (انظر مقــالات هيكل بالأهرام ما بين ١٩٦٧/٦ الى ٦٧/١٢) ــ واستمر هيكل يركز على الحل السلمى وفقــا لقــرار ٢٤٢ ــ المعترف

باسرائيل — وأن الحــرب الوحيــدة الممكنة هى : حروب أستنزاف لفرض الحل السلمى . وكان يقــدم منطقا تعجيزيا يوهن من عزيمة الشعب المصرى بقوله : انه لا يمكن الحرب ضـــد اسرائيل : لأن الحرب معها تعنى الحرب مع أمريكا . ونحن لا يمكن أن ننــاطح أمريكا . واختراع خرافة اسمها « تحييد أمريكا » !

كانت مقالات هيكل السامة دائبــة السعى لانهــاك معنويات الشعب المصرى وسحقها : وكان يبــدو فى مقالاته ديناصورا ساديا كريها : لكنه كان يرضى بمقالاته وروحه هذه الكثــير من شرائح المثقفين المهزومين والثــوريين مع وقف التنفيذ — (« بتوع نضال آخر زمن فى العوامات » كما وصفهم الشاعر نجم) — وكانت هــذه الشرائح — بطبيعــة ذاتيــة انانية — تبحث وسط الخراب من المكسب الذاتى والمصلحة الشخصية ، وكانت ترى فى راية الكفاح الشعبى ومواصــلة الاستعداد للدفاع من أجل اســتعادة كل الأراضى المحتــلة بالقوة ، كانت ترى فى هذه الراية ما يهدد استقرارها وراحتها لذلك قامت هذه الشرائح بتبنى مقــولات هيكل ، وصورته فى هيئــة الرجل العاقل الواقعى غير المتهور ، اذ وجدت فى صراحته الكاذبة صياغة رائعة لما يجول فى ضمائرها ويخدم

آهدافها — (كان أهم ما أبدع فيــه هيكل هو اعلانه أننــا انتصرنا فى الحقيقة — رغم خسارة الرجال وضياع الأرض — ونصرنا هو : أن نظام عبد النــاصر لم يسقط وبالفعل صرنا نحتفل بعبد الناصر رغم الهزيمة !) —

الى جانب شرائح محمد حسنين هيكل الثقافية ، وثقلهم الديناصورى على أنفــاس الشعب المصرى : بدأت شرائح الشعب المستضعف والمثقفين الصادقين يجدون حزنهم وآلامهم وكبتهم يتبلور ويتم التعبير عنه بقــوة وجرأة ، من قبل كيان فنى مفاجىء فرض نفسه على الأوساط الثقافية والسياسية رغم أنف الجميع : فلقد بدأت الأغنيات السياسية للكيان الفنى امام — نجم(١) تظهر ، لتفرض صراحة كل ما يزفر به صدر الشارع المصرى . وبدت هذه الأغنيات كسلاح قوى — فى جبهة المقــاومة الثقافية — يدحض مغالطات هيكل وصوت سيده . وبدأ كل مغتاظ يقرش تحت أضراسه :

« بصراحة يا أستاذ ميكى ... (المقصود هيكل)
انك رجعى وتشكيكى

---

(١) انظر ملحقات رقم ٣ .

قاعد لا مؤاخذة تهلفط
وكلامك رومانتيكى
ولا ناوى تبطل تكتب
بصراحة كلام بولوتيكى
عن دور الحل السلمى
واستعماله التكتيكى
فى الوقت اللى احنا صراحة
دايخين دوخة البلجيكى
وبلدنا لسه جريحه
وبتضرخ بالأفريكى :
لو بات التار يا أولادى
حيبات الذل شريكى
والشعب يقول يا بلادى
بالروح والدم افديكى
وحاجات بصراحة بتحصل
فى بلدنا يا استاذ ميكى
بصراحة لا انت معـــايا

ولا طالل من شبابيكى

وكأنك مثــلا موميــا

للسلطان الأنتيكى

أحياها لاســتعمالها

لستعمار الأمريكى

رجعت على هيئة :

ميـــكى ! »

* * *

وأغنية تسخر من صحافة عبد الناصر بأكملها وتوسمها الخــير فى مجىء نيكسون بعــد ذهــاب الرئيس الأمريكى جونسون :

« قولوا هأ أو أو قولوا هــاء

على صحافتنا الغير غــراء

ا با تا ثا ج ح الف باء

جونسون روح

نيكسون جــاء ! »

مع أغنية تصرخ بالاحتجاج على مقـولة : النصر رغم الهزيمة ! ! . .

« ايه يعنى شعب فى ليل ذله

ضـــايع كله

ده كفايه بس لما تقول له :

احنــــا الثوار !

وكفايه أسيادنا البعــدا

عايشـــين ســـعدا

بفضل ناس تملا المعدة

وتقول أشـــعار .

أشعار تمجد وتماين

حتى الخـــاين

وان شاء الله يخربها مداين

عبد الجبـــار ! »

كان المقصود بـ « عبد الجبار » : عبد الناصر . وسمع عبد النـــاصر هذه الأغنيات وهاج وقال لشعراوى جمعة : « ناس بتقول الكلام ده ولسه واقفه على رجليها ؟ ! » .

وقرر شعراوى جمعة القاء القبض على الشيخ امام والشاعر نجم — مع نعتهما بالشيوعية — وسجنهما مدى الحياة بلا محاكمة : عقوبة لهما على التعبير عن آلام الشعب المصرى .

وقتها اقترح هيكل علاجا خسيسا أفضل : وهو احتواؤهما وافسادهما بالمال والشبع ، حيث قال : « دى صرخة جوع ، شبعوهم ! » وفعلا جرت محاولات لتقديمهما فى الاذاعة والتليفزيون ، ونشرهما من خلال أصوات فايدة كامل ، محمد رشدى ، ليلى نظمى ! وصاحب ذلك موجة ساخنة تكتب عنهما فى صحف السلطة بحماس : أبرزها كتابات رجاء النقاش ، الذى كان واسطة تنفيذ مخطط السلطة ، لاحتواء الفنانين المعدمين ..لكن ما لبث المولد أن انتهى ، عند اكتشاف أن « امام — نجم » صعلوكان لا أمل فى احتوائهما ، وأنهما ما زالا مستمرين فى كتابة وغناء آلام وأوجاع الشعب المصرى ، بأسلوب نقد لاذع سافر ، موجه فى تركيز واضح ضد السلطة المهزومة . وبناء على ذلك تم تنفيذ القرار ، ودخل امام ونجم السجن مدى الحياة .. لكنها كانت مدى حياة عبد الناصر ، التى لم تستغرقهم غير ثلاث سنوات فى السجن .. أخرجهما بعدها أنور السادات مطلقا سراحهما .. لكنه عاد واعتقلهما بعد شهور ، حين استمرا يعبران عن حس الشعب المصرى ، الذى لا يخيب ، والذى

أدرك ــ على الفور ــ أن السادات ليس سوى تكملة لمشوار عبد الناصر ، فى ارهاق الشعب المصرى : بالزيف والكذب .. والشعارات المراوغة الطنـــانة .. وبالقمع .. والقهر .. سياسة مستمرة .. فلا يوجد فى الواقع أى تناقض بين نظام عبد الناصر والسادات .. ولكنهما حلقتان متتابعتان فى خيط واحد يبدأ منذ سرقة ثورة الشعب المصرى ليلة ٢٣ يوليــو ١٩٥٢ ، ثم سرقتها مرة أخرى عام ١٩٥٤ .

* * *

وتعجب للنـــاصريين ، الذين يتبجحون اليــوم بادانة اجراءات ٣ سبتمبر ١٩٨١ السوداء ، دون ادانة اجراءات مذبحة الاعتقالات صيف ١٩٦٥ الأسود .. ويتبجحون برفض اتفاقيــة كامب ديفيد ــ راكبين موجة الرفض الاسلامى ــ وتسالهم : أليس قرار ٢٤٢ هو القرار الذى قبــله معبودكم عبد الناصر ؟ وما هى كامب ديفيد الا تكملة المشوار الذى بدأه زعيمكم ذو الخــوار ! ويبــكون متمسحين حبــا فى خالد الاسلامبولى ، وتربد وجوههم التمساحية ، عندما تشير الى اكفهم المضرجة بدماء الشهيد الوضىء سيد قطب والشــهداء اخوته الآباء الشرعيين للبطولة الفذة ، التى تجلت فى فدائيتهم حين قاموا يهتفون للروح الاسلامية المنتصرة :

« فى ســـــبيل الله قمنـــــا »

« نبتغى رفـــــع اللـــــواء »

« لا لحـــزب قـــد عملنـــــا »

« نحن للـــدين الفـــــــداء ! »

وسوف « يهلضم » ألناصريون ردا على تساؤلك : ولن تفهم منهم وسط الشقشقات والطقطقات ـــ والبلطجة معظم الوقت ـــ الا نفس الطنين الناصرى المعهود والضجيج الذى بلا طحن او طحين .

وانا لله وانا اليه راجعون وعداً حقا .

صافى ناز محمد كاظم

القـــاهرة : ١٤٠٣/١ هـ
١٩٨٢/١٠ م

* * *

ملحقـــات :

١ ـ امل دنقل : شاعر الرؤية الموجعة

٢ ـ عبد الرحمن الشرقاوى : شاعر الرؤية المضللة

٣ ـ الكيان الفنى إمام ـ نجم : رؤية النبض الشعبى

١ ــ أمل دنقل : شاعر الرؤية الموجعة

فى ١٩٦٧ اخترعت السلطة المهزومة لنا شعار : « هذه ليست ساعة للحزن .. بل ساعة للعمل » . وكان هذا الشعار يحمل فى طياته ارهابا لمن يضبط متلبسا بـ « الحزن » أكثر مما حمل من نية « عمل » على الاطلاق . وكان علينا أن نتخفى بأحزاننا ونهربها فى النكات ، لكن المشكلة كانت فى الشعر والشعراء !

لم يكن ممكنا للشاعر الصادق ــ أيا كان منطلقه ــ أن يخفى أو يتخفى ، بل على النقيض ، كان عليه أن ينفذ ــ ببصيرته الى عمق الـ « آه » المكلومة فى قلب الشعب ليبصقها فى حنق على وجه : « أشعار تمجد وتماين .. حتى الخاين » .

وهكذا خرج أمل دنقل بـ « البكاء بين يدى زرقاء اليمامة » وخرج أحمد فؤاد نجم بـ « ناح النواح والنواحة » ومعهما

كان نجيب سرور قد صرخ « آه يا ليل يا قمر » على طول وعرض المسرح . وبالطبع لم تسمح رقابة السلطة المهزومة وقتها بنشر قصائد الشاعرين لأنها كانت قصائد من « أوراق الشعب المصرى السرية »، وهــذه أوراق لم تكن — والى الآن — موضع اهتمام أى من « ثوار » ومناضــلى السلطة المهزومة عام ١٩٦٧ : فهؤلاء « الثوار » كانوا يؤكدون أن ما حدث فى ١٩٦٧ هو انتصار وليس هزيمة .. لأن مصر لم تخسر سوى أرض وعدد من آلاف الرجال لا أكثر ، أما الهزيمة فلا تكون الا عندما تمس شعرة من رأسهم هم فقط : أفراد وحاشية سلطة ١٩٦٧ المهزومة .

ولم يكن ممكنا أن أقرأ قصــيدة أمل دنقل ألا عنــدما أعطاها لى سرا فى الشهر الثانى من ١٩٦٨ وقلت له سأحاول أن أهربها للنشر فى مقالى بمجلة المصور . قال أمل بيأس : مستحيل ، المنع صريح . قلت له : عندنا رقيب مصرى أولا وموظف ثانيا وسأقنعه بأن التعليمات تمنع نشر القصيدة لكنها لم تنص على منع ما نكتبه عن القصيدة . وفعــلا كتبت مقالا نشر بمجلة المصور فى ١٩٦٨/٣/٢٩ بعنوان مخالف لعنوان القصــيدة الممنوع مأخوذ من صلبها وكان يعبر عن النظرة الصامتة فى عيون الشعب المصرى المخذول :

« تكلمى لشد ما أنا مهان : »

لم تكن قيمة قصيدة : « البكاء بين يدى زرقاء اليمامة » فقط فى تفوقها وتكاملها الفنى ، ولكن فى توقيتها وما تعطيه من دفقة حزن عتية ، تحسها محمولة بملايين الأصوات .. ملتحمة كتلة خشنة وشديدة الرقة .. غائرة الجرح وكاملة الوعى وتبدأ بصورة الرجال الذين شربت الصحراء دماءهم :

« أيتهـا العرافة المقدسـة ،
جئت اليك مثخنا بالطعنات والدماء ،
ازحف فى معاطف القتلى ،
وفوق الجثث المكدسة ،
مغبر الجبين والأعضاء ،
أسأل يا زرقاء عن فمك الياقوت ،
عن نبوءة العذراء ،
عن ساعدى المقطوع وهو ما يزال
ممسكا بالراية المنكسة :
عن صور الأطفال فى الخوذات
ملقاة على الصحراء :

عن جارى الذى يهم بارتشاف الماء
فيثقب الرصاص رأسه فى لحظة الملامسة
أسأل يا زرقاء عن وقفتى العزلاء
بين السيف والجدار ،
عن صرخة المرأة بين السبى والفرار
كيف حملت العـــــار ــ
ثم مشيت دون أن أقتل نفسى
دون أن أنهار
ودون أن يسقط لحمى
من غبار التربة المدنسة .
. . . .
تكلمى بالله (باللعنة بالشيطان)
لا تغمضى عينيك فالجرذان تلعق
من دمى حساءها ولا أردها .
تكلمى لشد ما أنا مهان ..
لا الليل يخفى عورتى ولا الجدران
ولا اختفائى فى الصحيفة التى أشدها

ولا احتمائى فى سحائب الدخان ـــ
تقفز حولى طفلة واسعة العينين
عذبة المشاكسة : (كان يقص عنك
يا صغيرتى ونحن فى الخنادق
فنفتح الأزرار ساعة ونسد البنادق
وحين مات عطشا فى الصحراء المشمسة :
رطب باسمك الشفاة اليابسة
وارتخت العينان) ـــ
فأين أخفى وجهى المتهم المدان
والضحكة الطروب ضحكته ،
والوجه والغمازتان » .

الخلفية فى القصـــيدة مستمدة من قصة زرقاء اليمامة فتاة جديس فى الجاهلية ، التى كانت تبصر الشىء على مسيرة ثلاثة أيام ، وحدث أن أبصرت يوما ما يشبه أشجارا تســير ببطء فى اتجاه مدينتها ، وعندما أخبرت قومها أنها ابل أعداء قادمين ، تسير وئيدة متخفية تحت أفرع الأشجار ، سخروا منها واتهموها بالخبل ، وعجز الرؤية . لكنهم فوجئوا بعــد أيام بوقوعهم فى قبضة الأعداء وعرفوا ـــ بعد فوات الأوان ـــ

صـــدق ما حذرتهم به زرقاء اليمامة ، التى فضلت أن يفقأ الأعداء عينيها ، على أن تسخرهما لخدمتهم .

« زرقاء اليمامة » فى قصيدة « أمل » هى : بصـــيرة الطليعة الواعية الصادقة : والمتكلم فى القصيدة هو من فلول العـــائدين المهزومين : جرحى القلب والجسد بعـــد المعركة الخادمة . المتـــكلم يبكى بين يدى « الرؤية » التى نبهت ــ قبل المصائب ــ الى شواهد كان لابد أن تقود الى هزيمة ، لكن أحدا من السلطة الذاتية الفردية اللاهية لم ينتبه .

الصوت الذى يقـــدمه الشاعر ليس مفردا : بل هو الحشد الذى يضم غالبية البسطاء من الشعب الذين يعانون الادراك بأن الصحراء ليست هى وحـــدها التى شربت دماء الرجال .. لا ! لقد شـــاركتها السلطة فى الوليمة الدسمة وشربت من دماء الرجال ــ قبلها ــ قسطها الوفير :

« أيتها العرافة المقدسة ،
لا تسكتى فقد سكت سنة فسنة
لكى أنال فضلة الأمان .
قيل لى : « اخرس » !
فخرست وعميت وأئتممت بالخصيان .

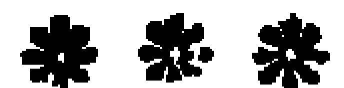
ظللت فى عبيد « عبس » حرس القطعان ..
أجتز صوفها ، أرد نوقها ،
أنام فى حظائر النسيان ..
طعامى الكسرة والماء وبعض التمرات اليابسة .
أنا الذى ما ذقت لحم الضأن
أنا الذى لا حول لى أو شأن
أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان ..
أدعى الى الموت ولم أدع الى المجالسة :
. . . . . .
تكلمى .. تكلمى ،
فها أنا على التراب سائل دمى
وهو ظمى
يطلب المزيدا .
أسائل الصمت الذى يخنقنى ..
ما للجمال مشيها وئيـــدا
أجندلا يحملن أم حديدا
فمن يا ترى يصدقنى ..

أسائل الركوع والسجودا ...!

« البكاء » الذى حرمته التعليمات على الشعب تطرحه القصيدة سميكا سمك الدم ولونه وثقله . الدموع نزيف وئيد غال .. حرام .. فهى ساعة للحزن : ساغة للحزن : لا فرار : مرة بسبب الهزيمة وخرابها الواقع ، ومرة بسبب الكذب والدجل لاخفائها وتحويرها والهروب من مواجهة تبعاتها ..

« ونحن جرحى القلب والروح والفم
لم يبق حولنا الا الحطام والدمار
. . . . . .
وأنت يا زرقاء ،
وحيدة عمياء ،
وما تزال أغنيات الحب والأضواء ،
والعربات الفارهات والأزياء ،
فأين أخفى وجهى المشوها
كي لا أعكر الصفاء الأبله المموها ! »

وكان لابد لـ « العربات الفارهات والأزياء » فى زمن الدم والعار : ١٩٦٧/٥ أن تقود الى مزيد من « العربات الفارهات والأزياء » ومزيد من أزمنة للدم والعـــار : ١٩٧٧/١١/١٩ زيارة السادات للكيان الصهيونى وما بعـــدها .. فكل ثمرة تأتى من صنف غرسها وطبيعة بذرتها .



٢ ـ عبد الرحمن الشرقاوى : شاعر الرؤية المضللة

عام ١٩٦٨ ـ أى بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ بعام واحد ـ كتب عبد الرحمن الشرقاوى مسرحيته « وطنى عكا » وفى الموسم المسرحى ٦٩ ـ ١٩٧٠ قدمها المسرح القومى عرضا مسرحيا من اخراج كرم مطاوع .

وقد سبب لى النص الذى قرأته والعرض الذى شاهدته لـ « وطنى عكا » فى ذلك الوقت ـ ١٩٦٩/١١ ـ حالة اندهاش وصدمة وغضب شديد اذ برز أمامى وقتها اعتراضان :

الأول : مرتبط بمدى الشعر فى شعر المسرحية الركيك فى لفظه وتركيبه وايحاءاته وتوظيفه للموقف والخط المسرحى .

الثانى : سياسى .. مرتبط بالرسالة الفكرية أو السياسية التى تطرحها المسرحية .

وأتذكر أنه رغم قوة بروز الاعتراض الأول بدأ الحديث

عنه أمامى نوعا من الترف حين وضعت حجمه فى نسبة مع الخطورة التى مثلها الاعتراض الثانى .. وهو ما طرحتـــه المسرحية من مغالطات وأفكار حول موضوع فلسطين وصراع العرب ضد الصهيونية ـــ (غير متكلمين عن تصحيح الطرح حيث أنه صراع بين الاســـلام ضـــد الصهيونية والصليبية متكاتفين) .

فى ذلك الوقت كنت ـــ رغم كل الانهيارات ـــ بريئـــة الذهن ، حسنة الظن جدا ، فتصورت أن ما طرحه الشرقاوى من افتراضات ـــ منحرفة وخطرة ـــ كان مجرد خطأ وقع فيه ـــ بحسن نية ـــ بسبب ما أسميته « ليبراليته الميلودرامية » أو بسبب جهله بحقائق موضوع العدوان على عرب فلسطين المسلمين .

ولكن موقفه فيما بعـــد ، فى تأييده خط الصلح الكامل مع اسرائيل الذى انتهجه السادات ، وتطابق المغالطات التى طرحهـــا الشرقاوى عام ١٩٦٩ فى المسرحية مع المغالطات التى دأب السادات واعلامه على ترديدها حول قضية فلسطين وعلاقتنا بالكيـــان الصهيونى المغتصب ، جعلنى أكتشف أن عبد الرحمن الشرقاوى لم يكن واقعـــا فى خطأ ـــ كما حسبت ـــ ولكنه ـــ بكامل قواه العقلية والأيديولوجية ـــ كان متبنيا لتلك المغالطات ، وداعيا لنظرة الأحزاب الشيوعية العربية الشوهاء المجرمة ، التى ظلت تعتقد بوجود شعب طيب فى « اسرائيل » تحكمه قلة رجعيـــة لا تمثل الغالبية ، وأنه لو

تغير نظام « أسرائيل » — يقصدون الكيان الصهيونى — من الرأسمالية الى الماركسية تنعدل الأمور وتنتهى المشكلة . أى أن الشرقاوى كان يعبر — ولا شك أنه نجح فى التعبير — عن رؤية شوهاء لمستقبل أهم وأوضح قضـية من قضايانا على المستويين القومى والاسلامى .

* * *

تبدأ مسرحية « وطنى عكا » بحازم ، يروى فى تمهيد قصة ضياع الأرض ، فيقول : « انكم لم تعرفوا المأساة حقا ... » — وتحسب أنه سيقول فعلا ما لم يوضع من قبل فى اطاره السليم : أن المأساة تبلورت بدايتها منذ وعد بلفور ١٩١٧ . وكيف تكونت فكرة الصهيونية التى تعتبر اليهودية جنسا وقومية : كيف تكونت بحركتها الدائبة الموجهة لتقويض الاسلام — لا سمح الله — ومهاجمته على أرضه . وكيف اعتمدت على الاستعمار الصليبى الجديد ، الذى تحمل لواءه الآن الولايات المتحدة . كيف أنها لصيقة بالامبريالية العالمية : مستفيدة منها ، ومدعمة بها ، وخادمة لأغراضها .. لكنها لم تكن أبدا ضحيتها أو متورطة معها — لكننا نرى بطل الشرقاوى « حازم » هذا يردد — لا يزال — الخطابة القديمة والرؤية المسطحة بأن المأساة بدأت ١٩٤٨ بهزيمة النظم العربية أمام الجيش الصهيونى الصغير — (لاحظ أن ١٩٤٨ صارت كذلك لا يتم ذكرها الآن .. فالحديث كله صار عند الثوار الناصريين والعلمانيين يبدأ بازالة آثار العدوان عام

١٩٦٧ — ووصل عند النظم العربية الحالية الى ادانة مذابح صابرا وشاتيلا ١٩٨٢/٩/١٧ !) —

ويبدأ الشرقاوى فى تقـــديم افتراضات — ليس لها أى مبرر مادى — لنماذج من العسكرية الاسرائيلية ، يفترسهم تأنيب الضمير ، صبيحة انتصارهم واستيلائهم على الأراضى العربيـــة عام ١٩٦٧ ! ويظهـــرون كلهم كضحايا تضـــليل الصهيونية ، حتى الذى شـــارك فى تكوين تنظيم لشـــباب الصهيونية فى لندن ! (لاحظ الدس لايجاد شعور بأن هناك فارقا بين الصـــهيونية وبين دولة اسرائيل !) — ويصـــل تأنيب الضمير بواحد منهم اسمه « مارسيل » — وهو فرنسى الأصل — الى أن يعود الى فرنسا ، بالرغم من الصعاب التى تنتظره هناك ، وترغمه على العودة الى اسرائيل .

وخلال ذلك ، لا ينسى الشرقاوى أن يقـــدم لنـــا كذلك شخصية صحفية فرنسية اسمها « ايمى » جاءت لتكتب عن المقاومة الفلسطينية ، لكنها تحكى لنا عن : « جندى آسرائيلى حر ، سئم الحرب ففر ، ومات الجندى المسكين ، وكانت آخر كلمات أطلقها : فليحيا الانســـان صـــديقا للانسان .. » — (وهذا المقتطف بين الاقواس من نص المسرحية) .

وعندما نصـــل الى المشهد الأخير يصور لنا الشرقاوى نضج وكثافة ما ادعاه — طوال المسرحية — من الأصـــوات

الحــرة التى ارتفعت داخل اسرائيل وتأثــيرها فى الموقف الحاسم ، عندما يأمر الضابط الاسرائيلى « يعقوب » بنسف القرية العربية اذا لم تســلم الفدائيين ، فيتقدم الضــابط الاسرايلى (الحر) « سلامسكى » معترضا فى غضب وثورة على أمر قائده « يعقوب » ـ (ولا يضربه يعقوب بالرصاص كما هو متبع فى مخالفة الأمر العسكرى اثنــاء معركة ، بل يجادله بالحسنى !) ـ ونجد كابطا اسرائيليا آخر (حرا) كذلك اسمه « سعد هارون » ـ من يهود فلسطين القدامى ـ يؤيد معارضة « سلامسكى » متخذا اسلوبا دينيا كهنوتيا فى التعبير عن رفضــه لأمر الضــابط « يعقوب » بنسف القرية العربية .

وفى هذه اللحظة نفســها ـ والشرقاوى يصــور لنا الأصوات الحرة فى اسرائيل تعارض وتمنــع الذبح والنسف والقتل ، وهى تبــدو متغلبة ومنتصرة على التيار المعــادى للعرب فى هذه اللحظة بالذات يدخل الفــدائى الفلسطينى « أبو حمدان » بالمفرقعات وبخدعة ساذجة يستطيع أن يقنع الفرقة العسكرية الاسرائيلية ـ (التى تبدو طيبة وانسانية الى درجة السذاجة ـ يقنع الفرقة بالالتفاف حول صــندوق المفرقعات فينفجر ويقتل الفرقة العسكرية كلها .. ويضــاء المسرح ونرى الفرقة الاسرائيلية الانسانية جثثا مبعثرة على الارض .. أشلاء الأصوات الاسرائيلية (الحرة) التى قتلها الفدائى الفلسطينى !.

وبهذا يصل الشرقاوى ـ بمدلول اللغة المسرحية المرسلة مع هذا المشهد ـ الى أن المقاومة الفلسطينية ، انما تقتل بأعمال (العنف) الأصوات الحرة ، التى نكسبها داخل معسكر الأعداء ! وبذلك يخلص حضرته الى ادانة المقاومة ، لصالح تلك الأصوات الحرة المزعومة ، التى يدعى وجودها فى داخل الكيان الصهيونى المعتدى ، والتى تدعونا المسرحية الى الاعتراف بها والتعاون والتعاطف معها ، وفق خطة رؤية تضللنا طيلة العرض المسرحى .

***

الذى يرضينى قليلا الآن أننى ـ حتى وقت افتراضى حسن النية فى ضمير الشرقاوى ـ لم أسكت له على الخطأ النابى ، الذى بدأ ـ عام ١٩٦٩ موجعا نشازا ، وكتبت نقدا للمسرحية بعنوان « الجدوى واللا جدوى فى مسرح عن المقاومة : ثم الشرقاوى والميلودرامية الليبرالية » ونشر هذا النقد بعدد مجلة المصور الصادر فى ١٩٦٩/٢/١٩ وركزت فيه على حقيقة من الحقائق ، التى كان علينا ـ وما زلنا ـ أن نواجهها وهى : أنه حين رفعت السلطة فى مصر شعار « اعرف عدوك » قبل وبعد الهزيمة ، كان لابد أن ندرك أننا بحاجة ملحة الى رفع شعار يسبق الشعار الأول ويمهد له وهو : « اعرف قضيتك » . اذ لابد لنا أن نعترف بأن الكثير من سواد الناس ومن المثقفين ، ظلوا الى ما قبل هزيمة ١٩٦٧

يرزحون تحت سحابة من الأمية السوداء ، فى كل ما يختص ويتعلق باغتصـــاب فلسطين .. لا يعرفون على وجه الدقة الكثير من الجوهرى والأســـاسى فى ملابسات ، وظروف ، ونوعيـــة ، نشـــأة وتطور التســـلل الصهيونى الى الأرض الاسلامية ، والى عقلنا قبل الأرض .

وبنـــاء على هذه « الأميـــة » ظل الاحتكاك بقضـــية فلسطين مشوشا ، غائصا فى لجج من الخزعبلات .. ونتج عن ذلك حالتان نقيضتان فى المظهر .. لكنهما شيء واحد فى تأثيرهما النهائى :

● أولا : حالة الاندفاع العاطفى المعبىء لكراهية عمياء من السهل محوها ولا يمكن توظيفها بديلا عن كراهية مستنيرة واعية ، مرتكزة على أســـباب وواقع عدوانى قائم لا يمكن محوها الا بمحو أسبابها ، والواقع العدوانى المستندة اليه .

● ثانيا : حالة رد الفعل والسخط على ما جرته علينا حالة الكراهية العميـــاء ، من اندفاع عصبى أعمى . وأخذت الحالة الثانية شـــكلا ـــ أعمى بدوره ـــ من ســـعة الأفق والعقلانية ومع جهلها وتجاهلها للواقع العـــدوانى للكيـــان الصهيونى وبمبالغاتنا فى تفادى الوقوع فى الكراهية العمياء ، وقعت فى تقدير مبالغ فيه لامكانيات العدو الفكرية والبشرية والتنظيمية والديمقراطية تقديرا يحط من معنوياتنا على الجانب الآخر ، ويحور الصراع من أساسه ، الى المقولة المتميعة :

بأن الصراع مع اسرائيل فى الواقع « صراع حضارى » ! !
وأن علينا أن نجتهد للحاق بالبناء الشاهق للحضارة ، المتمثل فى الكيان الصهيونى .. بحيث تنتفى وتلغى تماما استعدادات المواجهة العسكرية — (الحتمية ان لم يكن من جانبنا فمن جانب الدولة الصهيونية ، كما دللت الأحداث المأساوية فى لبنان ، وبعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام المزعوم !) — ونكرس جهودنا فى الصراع والتحدى الحضارى بيننا وبينهم : فى القصة والشعر والرقص والغناء — فقط — (لأن أى تنافس نووى أو علمى ، سوف ينسف ويضرب بقسوة من قبل الدولة الصهيونية المتحضرة ، ونسف مفاعل بغداد النووى واغتيال العالم الشهيد الدكتور المشد ، ماثلان أمامنا منذ البارحة !) —

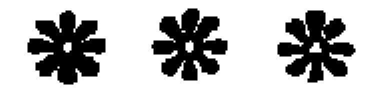
وارتفعت أصوات من ركبتهم هذه الحالة ، بمغالطة منطقية غريبة وهى : أن هناك أصواتا حرة داخل « اسرائيل » تنطلق من اطار ديمقراطى وبمساعدة هذه الأصوات يمكن أن تنجح فى تشكيل تيار عام يؤنبه ضميره لما اقترفته « اسرائيل » من جرائم ضد العرب .

— (لاحظ داخل الكيان الصهيونى ننجح نحن فى تشكيل

تيار لصالحنا ، ولعلنا لا ننسى المفارقة فى أن الكيان الصهيونى ـ للأسف ـ هو الذى نجح فى تشكيل تيار عام داخلنا نحن لصالحه ! (انظر خريطة النظم العربية !) ـ

وكما خلق لنا المنطق الأول الأعمى (الذى رسخه عبد الناصر فى النفوس قبل النكسة) ـ الوسادة التى نام فوقها البعض بأننا سندخل تل أبيب بقيادة عبد الناصر الحبيب كذلك خلق لنا المنطق الثانى ـ المزيف لواقع اسرائيل العدوانى بأن هناك أصواتا حرة داخل الكيان الصهيونى ـ خلق لنا وسادة حلا ـ ويحلو ـ للبعض أن ينام بدوره فوقها منتظرا عدونا ، الذى سوف يأتى تائبا معتذرا ناقدا نفسه ـ نقدا ذاتيا ـ لما ارتكبه فى حقنا من جرائم ، لأنه كان مضللا ثم أفاق ـ (وتولد هذا المنطق منذ عهد عبد الناصر بعد الهزيمة وتسلمه محمد أنور السادات وبلوره وحمله على عاتقه الى الكنيست الصهيونى ١٩٧٧/١١/١٩ ـ حيث تحدث ، وصافح ، وعانق ، وغرق ، فى حب ديان وجولدا مائير ... الخ .. وحيث وجدنا مناحم بيجن بعدها تبلغ به التوبة ويبلغ به الندم الى حد اقامة المذابح لابادة اللبنانيين ، والفلسطينيين المسلمين منهم على وجه الخصوص ، حفظا لود الصراع الحضارى والحوار الثقافى بينه وبين « محمد » أنور السادات !)

الأمر الذى يجدر الاشارة اليه بعد هذا كله أن مسرحية « وطنى عكا » ـ برؤيتها الخائنة ـ لقيت وقت عرضها احتفاء وتكريما وتدعيما من السلطة السياسية الناصرية ـ (التى احتفت من قبل « بياسين ولدى » ـ اذ حضر العرض خبراء السلطة السياسية وأبدوا اعجابهم الشديد بالعرض ؛ ورضاهم الكامل عن الرؤية السياسية . بل ان المفارقة الكبرى كانت التكريم الأكبر الذى جاء من قبل بعض ممثلى المقاومة الفلسطينية ، الذين قدم « أبو أياد » باسمهم درع المقاومة ، جائزة تقديرية للمخرج كرم مطاوع ، والمؤلف عبد الرحمن الشرقاوى عن عملهما ذاك الشائن .



٣ ـــ الكيا الفنى إمام ـــ نجم : رؤية النبض الشعبى

يوم اعلنت الهزيمة باسم النكسة فى يونيو ١٩٦٧ وجد أحمد فؤاد نجم نفسه يتقيأ دما .. ومع هذه الحالة الجسمانية المفاجئة جلس ليكتب قصـــــيدته الشهيرة التى كلفته قرارا بالاعتقال مدى الحياة عام ١٩٦٨ :

الحمد لله خبطنا تحت باططنا
يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار !

• • • • • •

يا أهل مصر المحمية بالحرامية
الفول كتير والطعمية
والبر عمـــــار
والعيشة معدن وآهى ماشية
آخر آشـــــيه
ما دام جنابه والحاشية
بكروش وكتـــــار .

حاتقوللى سينا وماسيناشى
ماتدويشناشى
ماستميت أتوبيس ماشى
شاحنين أنفار .
ايه يعنى لما يموت مليون
أو كل الكون
العمر أصلا مش مضمون
والناس أعمار .
ايه يعنى فى العقبة جرينا
والا فى سـيـنا
هى الهزيمة تنسينا
اننـا أحرار ؟
ايه يعنى شعب فى ليل ذله
ضـايع كله
ده كفايه بس أما تقول له
احنا الثـوار
وكفايه أسيادنا البعـدا

عايشين سـعدا

بفضل ناس تملا المعـدة

وتقول أشـعار .

اشعار تمجد وتماين

حتى الخاين

وان شاء الله يخربها مداين

عبد الجبـار !

* * *

وكان طبيعيا أن تخرج القصيدة الترجمة الفورية لقدر عنيف من الغضب والألم ، أحسه الشعب المصرى واستنزف من جوف الشاعر الدم .

وعندما تسللت القصيدة الى الناس ، تسللت معها عشرات القصـائد السياسية المغنـاة : « بقرة حاحا » ، « ميكى » ، « يعيش أهل بلدى » — (سخرية من الصيغة المزيفة لتحالف قوى الشعب العاملة !) — ، « كلب الست » — (سخرية من كلب أم كلثوم الذى كان أهم وأعز من مواطن مصرى بائس) — « يا مرحرح » — (صورة ساخرة للشريحة الملاصـقة للسلطة السياسية النـاصرية من مؤيدى الحل السلمى : « وتموت ف آلدبلوماسية/وتخاف م الفدائيين ») ،

« كلام المصطبة » ، « القضية » — (صورة دقيقة ومؤلمة للارهاب السياسى والابتزاز ومنهج تلفيق القضايا ضد المواطنين الذى تفنن فيه العهد الناصرى : « والقضية يا قضايا / بالمكايد والوشاية / دبروها وفصلوها / بالمقاس لبست قفايا ... / الحكاية ان البلد مش ملك ناسها / والخلايق فى البلد مش مالكة راسها / والبلد أصلا بلدنا مش عليلة / البلد علتها جاية من خرسها » .) — .

ومع القصائد فاجأ الناس بنيان فنى عمره خمس سنوات ، وبدأت دوائر المثقفين تردد اسم « امام — نجم » بدهشة واستغراب . وكانت الغرابة والدهشة أن « امام — نجم » يقول ببساطة ما يجب أن يقال وتماما فى توقيته المطلوب .

وبدأت الحلقات تتجمع أولا فى بيوت من يملكون أجهزة تسجيل ومنديل الأمان من السلطة . وقبل انتشار أجهزة الترانزستور الرخيصة حاليا : كان امتلاك جهاز تسجيل ، يلخص على الفور النوعية القادرة ماليا على هذا الامتلاك ، مضافا اليه امتلاك منديل أمان السلطة ، الذى لم يتوفر الا للحلقات الثقافية المتاخمة للسلطة والمتعاونة مع وزير الداخلية ! وكانت السلطة — بواسطة هؤلاء المثقفين — تريد أن تشبع حب استطلاعها عن هذا الكيان الفنى الذى « قب » من تحت الأرض رغم ارادتها لتكون فى موقع يمكنها — فيما

بعد ـــ من السيطرة عليـــه والخسف به تحت الأرض مرة أخرى ، عنـــدما ترى أن الوقت قد آن لفعل ذلك . وهذه النوعية الخاصة للبيوت ، التى كان بامكانها اقامة ســـهرة يغنى فيها امام ـــ نجم ، حددت بالتالى نوعية الجمهور الذى يتم اختيـــاره للاستماع ، والذى لا يمكن أن يكون عمـــالا أو فلاحين ، أو حتى من المثقفين الشرفاء : ضمير الشعب .

وهكذا استأثر بالفرصة الأولى للاستماع الى امام ـــ نجم جمهـــور كان فى معظم الأحيـــان يستحق ـــ أول من يستحق ـــ السياط الملتهبة التى كانت تتهاوى فى جلال ودأب من صوت امام ـــ نجم ، فتقع فى مكانها حيث يجب أن تكون . ومع ذلك وبسبب حياة الانفصام بين القول والفعل التى كان يعيشها هذا القطاع من الناس ، لم يكن بوسعهم أن يتعرفوا على أنفسهم فى المرآة ـــ أو لعلهم لم يشئوا ذلك ـــ فما دام امام ـــ نجم يغنى مثلا : « يعيش التنابلة فى حى الزمالك . . » ويعيشون هم بالذات فى حى آخر كالدقى أو العجوزة أو جاردن سيتى أو مصر الجديدة ، فيكون الشعور ـــ ولو مؤقتا ـــ بأن السوط ـــ لا يطولهم هم ـــ بل لابد انه يعنى ـــ دائما ـــ « الآخرين » ! قليل جدا من هذا الجمهور الذى اعترف لنفسه بأنه لا جـــدوى من الهرب ، وأن امام ـــ نجم ، انما يقـــدم المواجهة الصادقة ، بنقاء تام واستبسال كامل ، وعليهم أن يتقبلوا هذه المواجهة بالعرفان ، ويدعمونها الى حد الفداء ، أو يناصبونها العداء ، ويبذلون ما فى وسعهم للقضاء عليها !

وانقسمت هذه القلة بالفعل أمام هذا الاختيار الى قسمين :

١ ــ المدعمون : وتدعيمهم معنويا ــ غالب الأمر ــ بحماس الاستحسان والاجهاش ببكاء اللوم الذاتى والحسرة .

٢ ــ المقوضون : ومحاولاتهم معنوية ومادية بحملات التهوين من شأن قيمة البنيان الفنى الراسخ ــ بل وانكاره ــ وأفردت الصفحات لمقالات الضرب والهجوم والتشويه ، والاتهامات الشخصية فى الصحف والمجلات كافة ــ أبرزها مجهودات الموسيقى سليمان جميل ــ شقيق فايدة كامل زوجة النبوى اسماعيل وزير الداخلية السابق ــ وسيد مكاوى الذى علمه الشيخ امام العزف على العود ! ــ وضرب الحصار الاقتصادى ، وحرب التجويع حول الشيخ والشاعر ــ رغم أن الحصار كان مضروبا جاهزا ، وكان الجوع زميلا ملازما لهما .

وواصل الباقون موقف الاستماع بشغف والتلهف على جمع التسجيلات وحضور دعوات الاستماع مع الهروب المتواصل من مسئولية الدعم أو التقويض .

وكان هؤلاء هم الجمهور الغالب . وحقيقة الأمر أن ذلك الجمهور « المحايد » ساهم بشكل غير مباشر فى تقوية جبهة المعادين وكان فى واقعه جزءا لا يتجزأ من هذه الجبهة . وحين

امتدت يد السلطة وأطلقت قرارها بالاعتقال مدى الحياة ، على أمام ــ نجم ، انفض هذا الجمهور « المحايد الموقف » لأنهم بمواقعهم على وئام مع السلطة ومع المعــادين للكيان الفنى ، ومتى احتدم الموقف فهم مستعدون دائما ــ يافندم ــ لسحب اعتراضاتهم وشرب دم « امام ــ نجم »، واكل لحمهما لو صدرت بذلك التعليمات .

والطريف أنه فى حملة التشويه التى قامت بها أجهــزة وزارة الداخلية ، اعتمدت الحملة على ابراز المعــايرة بأن الشيخ والشاعر من المدخنين للحشيش .. ولكنها اضطرت الى سحب هذا الســلاح حيث كان كبار مسئولى الدولة فى السلطة الناصرية : ــ والساداتية بعــدها : من المدخنين للحشيش ، بالاضافة الى بعض فنانى الدولة .

وبعدها اكتفت الأجهزة بالتركيز على أتهام امام ــ نجم بالشيوعية ، الأمر الذى استطابه الماركسيون والشيوعيون، اذ أنهم بافتقارهم الى الكوادر الفنية الفذة ، مع عجزهم عن اتخــاذ المواقف الصريحة الشجاعة ذات الأثر الجماهيرى الفعال ، كان اتهــام امام ــ نجم بالشــيوعية مما يشرفهم ويعطيهم مكسبا جماهيريا ، لم يكن فى حسبانهم أو امكانياتهم. والحقيقة أن امام ــ نجم ــ مثل الشهيدين العاملين خميس والبقرى : بسيطين .. معــدمين مثل سواد المستضعفين من الشعب المصرى المخــذول .. برزا من تحت طحن الرحى ليعكسا رؤية النبض الشعبى . هذا النبض الشعبى ــ الذى

يدق فى عروق وقلب شعب مسلم اساسا وقبل كل شيء — فهل يمكن أن يكون الا متكونا من القرآن والمسجد والكتاب عبر ١٤٠٠ سنة كان الأزهر وعلماؤه — معظم الوقت — منارة العزة والكرامة لهذه الأمة ؟

عندما تفجرت الحركة الطلابية فى ينـاير ١٩٧٢ ، كان الشيخ والشاعر خارجين لتوهما من المعتقل ، بعد قضاء ثلاث سنوات وفوجئا بأغنياتهما شعارات يرفعها الطلاب :

« ما تقـوليش ما تعـدليش
حرب الشعب وغيرها مفيش ! »

ووجد امام — نجم الفرق الشاسع بين هذه الجمهرة من العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين الصادقين — (ضمير الشعب المصرى) — وبين تلك الجماعات « الزنخة » التى كانت تحوطه قبل الاعتقال ولا يجد بينهم سوى « اليويو — الذى يفرد لسانه ويضمه مثل الأستك وفق المبلغ الذى يتقاضاه ممن لهم مصلحة فى فرد أو ضم اللسان .. » و « الحلاويلا — الذى يتمركس بعض الأيام ويتمسلم بعض الأيام ، ويصاحب كل الحكام وبـ ١٦ ملة . » و « القـواد الفصيح — الذى هو على استعداد دائم لبيع وعرض بنات أفكاره تحت الطلب ! »

واذا كانت جمهرة النبض الشعبى الصادق قد وجدت فى غناء امام — نجم كل ما افتقدته فى أجهزة الاعلام فكرا وفنا

وصدقنا ــ على طول العهد الناصرى والعهد الساداتى ــ فقد وجد امام ــ نجم فى النبض الشعبى المتبدى المتصاعد والمعبر عن نفسه ببطولة فذة رغم البروج المشيدة :

« فرحة هلت واحنا حزانى ».

وكما وقف أحمد فؤاد نجم أمام خامته : « اللغة العامية المصرية » يعيد اكتشافها ليصوغ بها رؤيته ، وقف الشيخ « امام عيسى »، أمام فنية الترتيل القرآنى وروافده التابعة : « موشحات المدائح النبوية والتسابيح والابتهالات الدينية » ووجد فيها بئره الملىء يغرف منه بسخاء ويصوغ منه مفهومه لرسالة : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . وقد وجد فى شعر أحمد فؤاد نجم المحور الذى يستطيع أن يتعشق معه بموسيقاه وأدائه فينجدل منهما عمل فنى يتمم بعضه البعض فى تجانس ووحدة .

والذى يجب أن نعرفه أن « الشيخ أمام » حافظ القرآن بقراءاته جاء من مدرسة « الجمعية الشرعية » وكان رئيسها الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله ، مثلا أعلى للشيخ امام فى مرحلة شبابه الأولى . ويذكر الشيخ امام لشيخه العالم الفاضل أنه صعد منبر الأزهر عند تسلمه شهادة العالمية وصاح : « يا علماء الدين ، يا حكام البلاد ، أنتم على ضلال ، حتى تعودوا الى كتاب الله وسنة رسول الله » . ــ

ويقول الشيخ امام أنهم اتهموه بالجنون بعد أن ألقوا به فى سجن المحافظة .

ولا شك أن تلك النظرة « الشرعية » ترسخت فى وجدان الشيخ ، وأثمرت موقفه الجسور الحازم من كل أشكال الميوعة والتصنع و « الضلال » فى الموسيقى والغناء . وقد حاز « الشيخ امام » بفضل هذا الموقف « الجهادى » أسبقية لم يكن لها مثيل فى تاريخ بلادنا : هى أسبقية كونه أول موسيقى وأول مغن يدخل المعتقل بسبب موسيقاه وغنائه . ولعلنا نجد فى اجراء اعتقال « الشيخ امام » اعترافا ضمنيا من السلطة — الناصرية والساداتية على السواء — بأن هذا الرجل قدم لأول مرة ، وبشكل فعال وبارز « موسيقى الرأى » و « غناء الرأى » ونجد أنه حقق ذلك بكل دماء الموسيقى الشعبية .

ازاء موسيقى وأداء الشيخ امام لا يمكن للمستمع ان يغفل :

أولا : أنه « شيخ » .

ثانيا : أنه خارج من « فنية الأداء الدينى » غير متنكرا لها بل مطوعا لها ، مستغلا امكانياتها ما يمكن أن يدعمه فى توظيفه الجديد « الغناء السياسى » الذى يعرف أنه

استمرار لرسالته الدينية ، كما عرفها عند مربية الشـــيخ السبكى : قول المعروف والنهى عن المنكر ، من فوق أعلى المنابر ، ولو كان ثمن هذا القول الزج فى السجون أو الاتهام بالجنون :

« معـــدودة الخطاوى رايحه ولا جايه »
« ما يلمكشى خوفك ع الدنيا الدنيـــه »
« قول الكلمة عالى بالصوت البـــلالى »
« كامش ليـــه وخايف فرج الشفايف »
« هو العمـــر واحد ولا العمـــر ميه ؟ »

ثالثا : عنصر الطـــرب الشجى المؤثر المطعم لألحـــانه كشىء أساسى وواضح ، لكننا نعلم أن « عنصر الطرب » عند « امام » ليس كما استخدم عند أم كلثوم وعبد الوهاب أو كما استخدم فى تراث « ملا الكاسات وسقانى » كوســـيلة مغيبة عن الوعى : مخدرة ومثبطة : ان الشيخ امام يحتوى « عنصر الطرب » ويسيطر عليه ويأخذ سره المؤثر الشجى ويستخدمه كأفضل ما يكون ، متجنبا سلبياته ، دون أن ينسف ما يمكن أن يستخرج منـــه ايجابيا : أنه يتناول « عنصر الطـــرب » ليتقـــرب به من القلب فى الفة ، وهو محتفظ للعقـــل بكامل

صحوته ووعيه ، سواء كان استخدامه دراميا كما فى قطعته « الأرغول » . أو كاريكاتيرا ساخرا كما فى قطعته « القواد الفصيح ». ويمكن للقارىء أن يتفهم مقصدى بمراجعة الاستماع المركز لألحان الشيخ امام : « الخط ده خطى » ؛ « دلى الشيكارة » ، « الأولة بلدى » ثم « الطنبور » التى يتفجر فيها — هى ومواالها « ورد الجناين » — الوجدان الاسلامى للشيخ امام : خصبا جياشا : وبرهانا قاطعا على « اسلامية » النبض الشعبى والحمد لله . ولعل لحن « الطنبور » و « مواله » وأسلوب آدائه الغنائى ، يكون النموذج الفذ لنجاح « الشيخ امام » فى تطويع وتطوير امكانية غناء « الشيخ » و « البطانة » من فنية الابتهالات والمدائح النبوية .

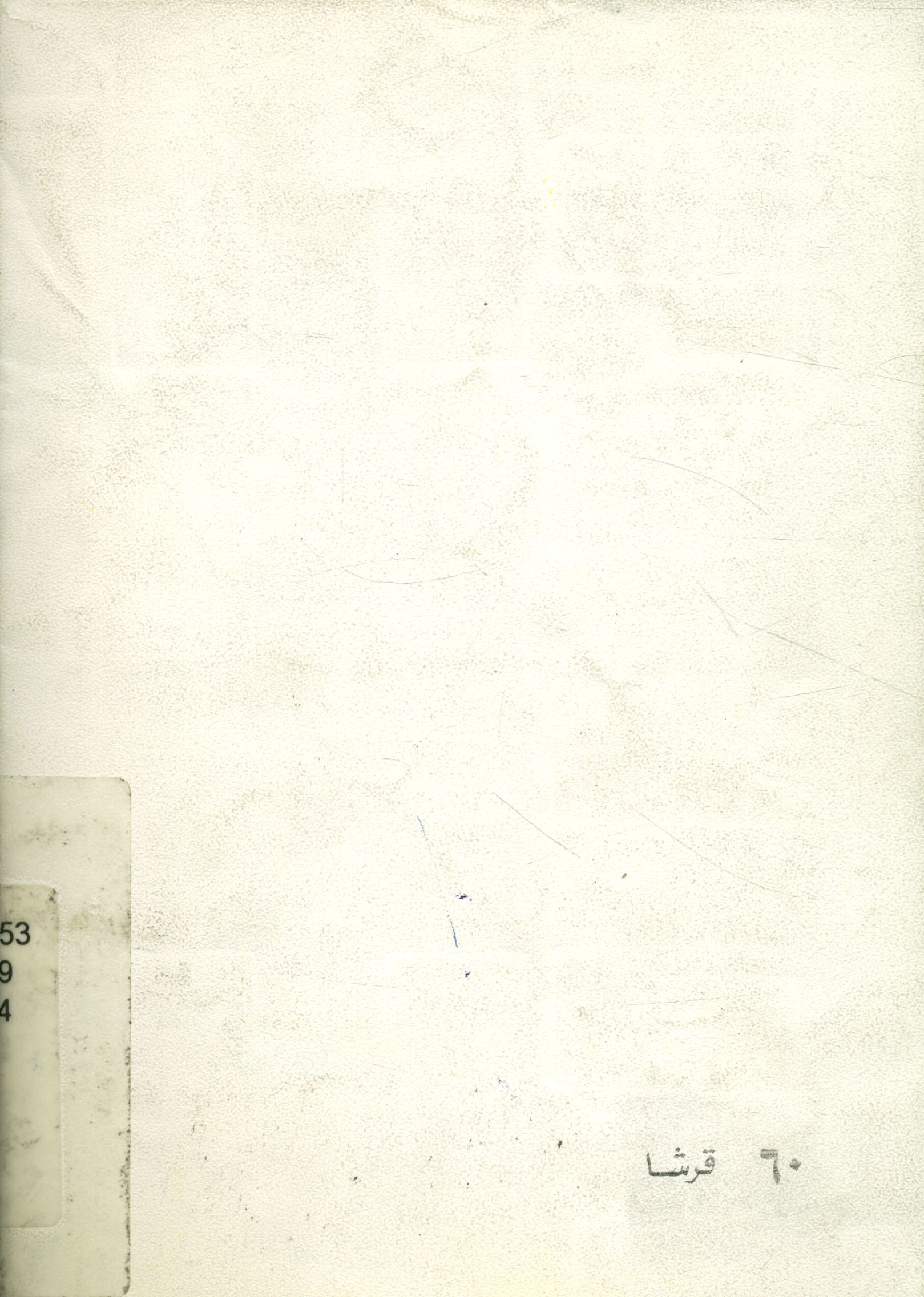
صافى ناز كاظم

* * *

محتويات الكتاب

دار العلوم للطباعة
القاهرة: ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت ٣١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٣٢/٨٤١٢
الترقيم الدولى ٣ — ٦٢ — ١٤٢ — ٩٧٧



53
9
4
٦٠ قرشا